وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة محمد الصديق بن يحي –جيجل–

كلية الآداب واللغات

قسم : اللغة والأدب العربي

مذكرة بعنـــــــوان:

الحس المأساوي في شعر المعتمد بن عبّاد–أغراضه ومواضيعه–

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات نيل شهادة ماستر

تخصص: أدب عربي قديم

إعداد الطالبتين:

✓ أكراب فايـزة

✓ عيسوس زهور

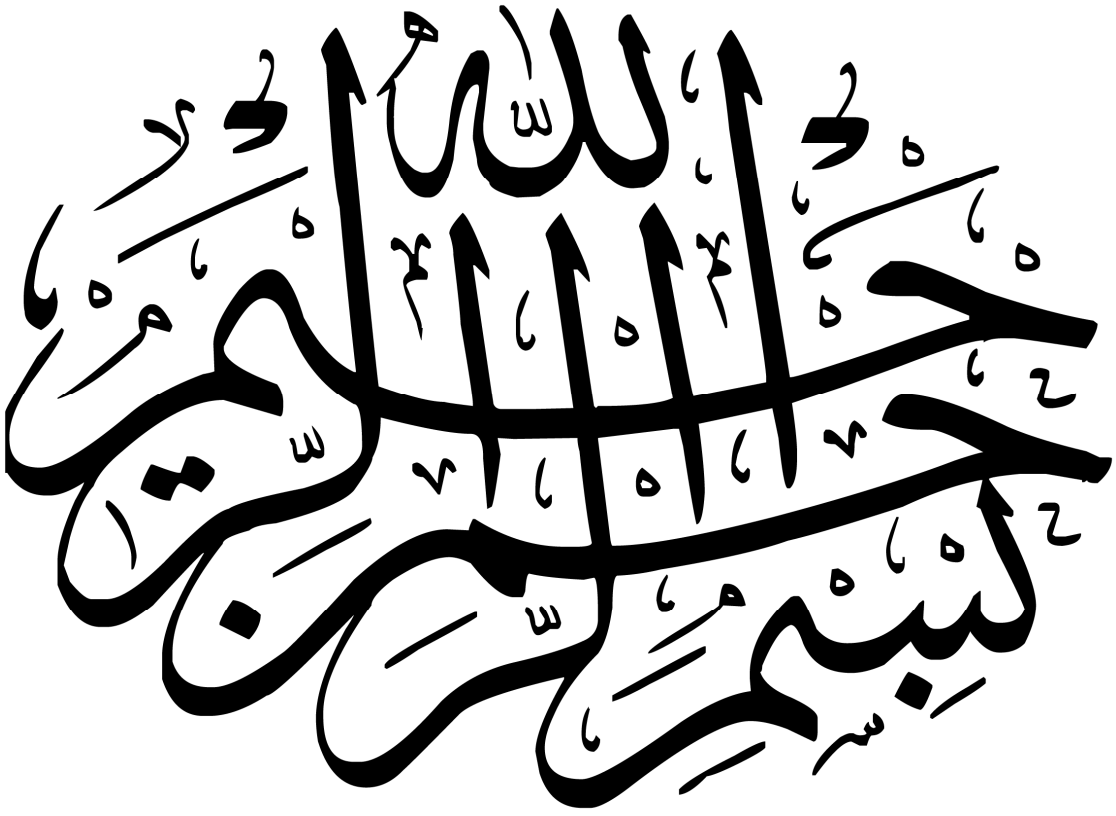
إشراف الدكتور:

– صلاح الدين باوية

لجنـــــة المناقشـــــة:

اللقب والاسم	الرتبــة	الصفـة
د. فاتح بوزيـــــت	أستاذ مساعد أ	رئيســـــــا
د.صلاح الدين باوية	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا
أ.د فيصل الأحمـــــر	أستاذ التعليم العالي	ممتحنـــــــا

السنة الجامعية: 2021/2020م


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)

صدق الله العظيم

سورة التوبة

الآية: 105

شكر وتقدير

قال تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (سورة إبراهيم، الآية 07)

لا يسعنا بعد أن أنهينا هذا العمل المتواضع إلا أن نشكر الله عز وجل المنعم الأول الذي يعجز العقل عن الإحاطة بجميع نعمه ويعجز اللسان عن شكره عليهما بما هو أهل له

فالحمد لله أولا وآخر حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، ومن ثم فإننا نتقدم بالشكر والامتنان والتقدير لأستاذنا الفاضل الدكتور "صلاح الدين بلوية" الذي شمل البحث بالرعاية اللازمة ناصحا وموجها قارئا ومصححا

نسأل الله عز وجل أن يجازيه عنا خير الجزاء

كما نتوجه بالشكر إلى أستاذنا المحترم الدكتور "سعيداني نور الدين" الذي كان لنا خير سند نفعنا الله وإياه ببركات سيد الوجود

كما نتقدم بالشكر الوفير إلى أعضاء لجنة المناقشة الأفاضل الذين تفضلوا بفحص هذا البحث وإثرائه بملاحظاتهم وآرائهم الوجيهة

فايزة زهور

إهداء

بسم الله الرحمان الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ومن أتبعه إلى يوم الدين وبعد:

إلى من أوفيا بالعهد إلى من سلكا دروب الحياة بكبرياء وشموخ إلى القلبين الكبيرين اللذين شملا أسمى آيات الحب والحنان والرعاية إلى نبع الحنان لا ينبض أبدا إلى من رافقني دائما إلى أغلى ما أملك في هذا الوجود: إليك أمي الحبيبة إلى من تعب وعرق لأجلي إلى من علمني دروس الدنيا إليك يا أبي الحبيب

إلى من أفخر بوجودهم وأتباهى بقربهم إلى إخواني وأخواتي أهدي ثمرة جهدي وعملي إلى أصدقائي وزملائي وكل من مدّ لي يد المساعدة من قريب أو بعيد

فايزة

زهور

مقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ونبينا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم وبعد:

إنّ من أصعب اللحظات في حياة الإنسان هي تلك التجارب الناقلة لبذور الذل والمهانة، ومرارة الفقدان للحرية، ومنه كان الشعر أقدس الألوان للتعبير عن الأحاسيس الإنسانية، ويتميز الرائع منه والخالد بالأناقة في الأسلوب، والغنى في المعاني، وكل قصيدة تحملنا إلى أجواء الشاعر، وتدعونا للإسهام في رؤيته التصويرية، وصدق عواطفه، وعمقها، ومن أقدس ما وصلنا من الشعر وأصدقه هو شعر الأندلس.

لقد احتلت الأندلس مكانة خاصة في قلوب المسلمين، ولاسيما المؤرخين منهم والمهتمين بتاريخ الأدب، والذين كلّما تذكروها باحث أنفسهم بالآهات لضياع حضارة مشيّدة بالذّم والعرق، والمجد والخلود، والتي لا تزال آثارها إلى اليوم ناطقة بمجد دام هنا لقرون، فهي بلاد عزيزة على قلب كل مسلم عربي غيور على إرثه، ومن هنا جاءت الرغبة في الاطلاع على هذا الإرث، وإضاءة جانب من هذه الحضارة، وقد تم اختيار "دولة بني العبّاد" موضوعا لهذا البحث واختيار المعتمد بن عبّاد نموذجا لهذا البحث، لأنّ حياة هذا الملك، ومأساته لا يمكن أن توفيها حقّها دراسة واحدة.

هذا الملك الذي انتقل من حياة العزّ والقصور إلى حياة الذل والهوان، فقال أجمل قصائده وهو في السجن، وهذه القصائد تسمى بالأسريات، سيتم التركيز عليها من خلال تجليات الحس المأساوي في قصائده وهو في "أغمات"، هذا الأخير الذي شغل اهتمام الباحثين والدراسين، فأردنا الكشف عن خبايا هذا الموضوع، كما أردنا أن نعطي صورة واضحة عن هذا الملك العظيم وهذا الشاعر، وتلك القصائد الأسرية، ومن هنا جاء اختيارنا للبحث في هذا الموضوع الموسوم بعنوان"الحس المأساوي في شعر المعتمد بن عبّاد" ولعل من أهم الأسباب التي

حملتنا لاختيار هذا الموضوع دوافع وأسباب ذاتية مردّها الإعجاب بهذا الملك، فالمعتمد لم يكن شخصية عادية، بل رجلٌ جمع بين الملك والشّاعرية والجهاد، وهي ميزة قلما تحققت في شخص، كما أنّ تلك القصائد التي قالها وهو مأسور تعتبر من عيون قصائد الرثاء في الشعر العربي، ذلك لأنه بطل مأساة غريبة وفريدة من نوعها، ولأنّ نهايته كانت بداية لمرحلة جديدة من مراحل تاريخ الأندلس، هذه الأسباب وغيرها جعلتنا نرشح هذا الموضوع بالذات لاحتوائه على قصائد تظهر مأساة الإنسان الحقيقية. لاسيما بعد الاطلاع على بعض الدراسات المنجزة وإن كانت نادرة قليلة، لأنه قلّ من درس هذا الموضوع، نجد مذكرة لنيل شهادة الماجيستير بعنوان: المعتمد بن عباد من المجد إلى المأساة في الشعر الأندلسي-دراسة فنية- لـ: هناء نايلي، تحت إشراف الأستاذ: عبد العزيز بومهدة، جامعة 8ماي 1945-قالمة- 2013/2012م، وأيضا مذكرة لنيل شهادة الماستر بعنوان"المعتمد بن عباد- دراسة نفسية وآثاره الأدبية- إعداد الطالبة بطاهر زهرة.

ومنه فقد حاولنا في هذا البحث رصد أهم المحطات في حياة المعتمد لاسيما ما تعلق بمأساته فكانت خطة بحثنا مقسّمة إلى: مقدمة، مدخل، فصلين، خاتمة وملحق، وكان هيكل البحث كالآتي: مقدمة تتضمن فكرة عامة عن موضوع بحثنا، ومدخل تطرقنا فيه إلى الحياة العامة في دولة بني العبّاد، وفصلان الأول نظري والثاني تطبيقي، فيما يخص الفصل الأول النظري تناولنا فيه أو كان حوصلة حول الحس المأساوي بحث في المفهوم والبواعث والخصائص، وتجليات الحس المأساوي عبر العصور من الجاهلي إلى الإسلامي.

أما الجانب التطبيقي فكان بعنوان تجليات الحس المأساوي في شعر المعتمد بن عبّاد، وتطرقنا فيه إلى أهم الانعكاسات النفسية في أعماله من خلال قصائده خاصة الأسريات منها، سواء عنونة القصائد أو القاموس الشعري، والحقول الدلالية التي تحمل معنى الحس المأساوي، تناولنا فيه كيفية تجليات الحس المأساوي، وفي الأخير تلتها خاتمة وهي حوصلة لما جاء في هذا البحث متبوعة بأهم المصادر والمراجع.

ومنه فقد حاصرتنا تساؤولات كثيرة كانت بعضها هاجسا مؤرقا منها:

- ما حقيقة الحس المأساوي؟
- ما هي أبرز الدوافع والبواعث التي يقوم عليها؟
- والأهم من ذلك: كيف تجلى في شعر المعتمد بن عبّاد؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات اعتمدنا على المنهج التاريخي البلاغي كأداة لدراسة المأساوي في شعر المعتمد بن عباد، ذلك أنه يسهل لنا إبراز تمظهرات الحس المأساوي وتجلياتها في الديوان، كما اعتمدنا أيضا على المنهج التاريخي الذي أتاح لنا فرصة الاطلاع على بيئة الشاعر السياسية والثقافية والاجتماعية، واعتمدنا كذلك على المنهج النفسي، لتفسير نفسية الشاعر وأثر ذلك على شعره، وأعانتنا بعض المصادر والمراجع في هذه الدراسة منها:

- ديوان المعتمد بن عبّاد، جمع وتحقيق الدكتور: رضا الحبيب السويسي.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: للمقري التلمساني.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتيري.
- كذلك كتاب: المعتمد بن عبّاد لعبد الوهاب عزّام.
- كتاب: المعتمد بن عبّاد في سنواته الأخيرة لـ: عبد الدين حمروش.

وكالمعتاد نجد لكل بحث صعوبات تواجهه ليكون عملاً ناجحاً ذا قيمة، فقد واجهتنا صعوبات في جمع شتات الموضوع المتناثرة منها: صعوبة الحصول على الديوان الأصلي للشاعر، مع العلم أنه ليس هو من قام بجمعه ونشره، بل تمّ جمعه وتحقيقه من طرف مؤرخين، إضافة إلى ندرة الدراسات حول هذا البحث، إلا أن هذا لم يكن عائقا في انجاز هذا البحث، الذي نرجو أن يكون قد وفقنا فيه، ولابد أيضا من وقفة نتقدم فيها بالشكر الجزيل والامتنان إلى الأستاذ المشرف الدكتور: "صلاح الدين باوية" الذي كان نعم المؤطر بتوجيهاته ونصائحه، والتي كان لها الفضل في تعميق معرفتنا حول هذا الموضوع.

وفي الختام نقول: ما دراستنا هذه إلا دراسة متواضعة لا ترقى مستوى الكمال إذ أنّ الكمال لله وحده، لكن نسأل الله أن نكون قد وفقنا فيه ولو بالندر القليل.

مدخل

الحياة العامة في دولة بني عبّاد

تأسست دولة بني عباد في إشبيلية عند بداية الفتنة في قرطبة «حيث كشفت أحداثها عن ضعف عاصمة الخلافة ومقرها،هذا ما جعل بعض الظروف السياسية والاجتماعية فرصة الاستقلال والانفصال فاستغلّ بنو عبّاد ممثلين، ليؤسسوا دولتهم. دولة بني عبّاد التي دام حكمها مدة سبعين سنة من 414هـ/1023م إلى 484هـ/1091م»[1].

قد استطاع آل عبّاد أن يتميزوا عن سائر الملوك والمماليك، بالتأسيس لانفصال سياسي يهدف إلى إعادة بناء الخلافة، فكان بنو عبّاد أولى بلواء الخلافة لأنهم كما قال صلاح خالص:«...من أهل البلاد الذين استقروا فيها من قديم والذين تأسبنوا أو انصهروا في البوتقة الاسبانية بمرور الزمن وصاروا أندلسيين...»[2] .

بالتالي كانوا يرون أنهم جمعوا بين الأصل العربي العريق وبين النشأة في الأندلس منذ تأسيسها، إضافة إلى إدارتهم لمدينة إشبيلية العريقة التي كانت العاصمة الأولى للمسلمين عن الفتح ،ناهيك بتاريخها السياسي قبله إذا كانت «قاعدة ملك الروم و بها كان كرسيهم الأعظم...» [3]

بالتالي فبلاد الأندلس تنقسم بعد زوال الدولة الأموية إلى أمراء تنازعوا على رقعتها وظفر كل واحدٍ به قدر عليه، فقامت إمارات تولاها أمراء، سموا، ملوك الطوائف، واستمر عصرهم ما يقارب الخمسين عاما. وكان للطوائف أربع عشرة دولة في أرجاء البلاد، لا يتسع لنا المجال لذكرها أنما مقصدنا هو دولة بني عبّاد.

«كان أعظم ملوك الطوائف وأفسحهم ملكا، وأبعدهم صيتا وأكثرهم ذكرا في التاريخ والأدب، بني عبّاد ملوك اشبيلية وقرطبة ...دامت سبعين سنة تولاها منهم ثلاثة ملوك أبو القاسم محمد ،وابنه عمر عبّاد الملقب بالمعتضد،ثم بعده ابنه محمد بن عبّاد الملقب بالمعتمد»[4]

[1]- صلاح خالص، اشبيلية في القرن الرابع هجري، دار الثقافة ، بيروت ،1965 ، ص111.

[2]- عبد الوهاب عزّام، المعتمد بني عباد، دار المعارف،م صر ، ط2، ص10.

[3]- المرجع نفسه، ص10.

[4]- عبد الوهاب،عزّام ، المعتمد بن عباد، ص11.

استمر ملك الأول تسع عشرة سنة أي من (414 إلى 433هـ) وملك الثاني ثمانيا وعشرين سنة(433هـ-461هـ) ، أما المعتمد فقد دام حكمه ثلاثا وعشرين سنة(461-484) أي سقوط اشبيلية ،فبني عبّاد ينتمون إلى لخم ،ثم إلى مناذرة الحيرة ،تردد ذكر هذا النسب في أقوالهم وأقوال من أرخو لهم ومدحوهم .

ذكر علي ادهم في كتابه"المعتمد بن عبّاد".قال:

من بني المنذرين وهو انتساب زاد في فخرهم بنو عبّاد[1]

فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولاد.

وبالتالي فسؤالنا هو كيف وصلت أسرة بنو عبّاد إلى الحكم؟

يقول الدكتور قيصر مصطفى في كتابه المعتمد بن عبّاد: « ما إن شارف القرن الرابع للهجرة على نهايته حتى كان دولة بني أمية تتهاوى أركانها ،ولم تلبث أن سارعت للزوال،وأفلت شمسها فما كان من الأسر التي كان قادتها يستظلون بظلالها ويتفيؤون تحت أشجار بساتينها...وكانت البداية مع وفاة الحكم المستنصر الذي أورث الخلافة لولده الصغير هشام، وكان لذلك أسوء العواقب على الخلافة الأموية بكاملها...»[2]

وبما أنهم لم يستطيعوا الحفاظ على أمجاد أجدادهم وإرث أسلافهم ، فهوت دولهم وسقطت بسقوطها، انتهت الخلافة الأموية، وبدأت فترة حكم الطوائف تلوح في الأفق ، إلى أن بزغ فخر الدويلات التي عرفتها الأندلس من بينها قرطبة واشبيلية وما يهمنا هو اشبيلية ، وإن كان مصيرها أحيانا مرتبطا بمصير قرطبة « لقد خضعت لبني حمود العلويين،حينما استولوا على قرطبة ،ولما ثارت قرطبة على القاسم بن حمود وطرد منها وحاول الالتجاء إلى اشبيلية..»[3]

[1]- المرجع السابق، ص12.

[2]- قيصر مصطفى، المتعمد بن عبّادّ، مؤسسة الأشراف للنشر، بيروت، لبنان، ط1 ، 2011 ، 1432، ص39.

[3]-المرجع نفسه، ص40.

وذلك لأنه كان جائر على أهل المدينة ،لكنه حمل على التقرب من العامة فأحسن إليهم ، واختاروا وزراء من الأدباء والمثقفين، وكان يتبع أسالب الديمقراطية في الحكم. «فلم يكن يبث في أي موضوع دون الرجوع إلى أعوانه ووزرائه»[1]

لكن قيل انه لما علا شأنه وصار اقوي سلبهم حق إعطاء الرأي وأصبح مسيطرا أكثر«وهذا شأن الملوك والرؤساء يبدأ عهدهم حسنا لَيِنًا ثم لا يلبث أن يقبح ويقسو يوما عن يوم»

وكان والد القاضي أبي القاسم إسماعيل أول من اخرج هذه الأسرة كم الظلمات إلى النور «إذا كان عالما فقيها، وجنديا بارعا تولى قيادة فرقة في حرس هشام الثاني، وقد اشتهر إلى ذلك بالنزاهة الاستقامة وسموا أخلاقه،كما اتصف بالكرم والنجدة ،فرغم فساد المجتمع أنداك ،فإنه ابتعد عن الريب و توفي عام 410للهجرة»[2] ثم بعدها ينتقل الحكم إلى ابنه أبو القاسم محمد ،ويقال انه نظير أبيه في الذكاء والفطنة وسعة المعرفة، إلا أن أخلاقه كانت متدينة عكس أبيه الذي كانت أخلاقه وشيمه شيم الملوك.

كما قيل أن المعتضد هو الآخر كانت له نفس الأخلاق لأنه لا ينكر الجميل ولا يعترف به ويقال أن المعتمد هو الآخر كانت فيه هذه الصفة «كما أن حفيده المعتمد أيضا تصرف بنفس الكيفية، فالغدر إذن ثقافة متوارثة تسلمها بنو عباد أبا عبد جد، وكانوا فيها على تفاوت من حيث المبالغة والاعتدال»[3]

لكن رغم ذلك فالمعتمد اشتهر بأخلاقه وعدله وحلمه وعفوه، صحيح أنه يحمل صفات أبيه وجده، لكن بصفة معتدلة، لا مبالغ فيها.

مات القاضي سنة 433 للهجرة، بعد أن وضع الأساس لدولة بني عباد وأرسى قواعدها وأعلى جدرانها ووسع حكمه ومكن سلطانه وارهب أعداءه ،وخلد في الأدب ذكر بلسانه وشعرائه ، ليبدأ حكم المعتمد بن عباد

[1]- قيصر مصطفى، المعتمد بن عباد ص42،41.

[2]- المرجع نفسه، ، ص42.

[3]- المرجع نفسه، ص43.

«قالوا صفوه كثيرون وقد افتتن الشعراء في مناقبه ومآثره، وأولعت الكتب والكتاب بأخبار وآثاره »[1].يقول فيه إبن اللبانة: « ملك مجيد، وأديب على الحقيقة مجيد،وهمام تحلم به الملك لبَّة وللنظم جيدا أفنى الطغاة بسيفه....وشيد في كل معلّوة فناءه ،وعمر بكل نادرة مستغربة وباردة مستضرفة...»[2]

1- الحركة الأدبية والثقافية:

تميزت مملكة بني عباد بحركة أدبية واسعة ، فانتظم في بلاط بني عباد أبرز الشعراء في ذلك العصر وآدابه أمثال:ابن زيدون و ابن عمار وابن اللبانة، عبد المجيد بن وهبون،حسان المصيصي وعلي بن حصن الاشبيلي وآخرون ...،ومثلما نجح بني عباد في استقطاب هذه القامات الأدبية، نجحوا كذلك في رعاية الشعر والشعراء، وجعلوا من الشعر بوابة أدبهم نظرا لما يتميز به الشعراء من ذوق فني وملكة شعرية كانت كفيلة باستقطاب العديد من الشعراء اللذين أعطوا للشعر قيمة كبيرة يقول في ذلك ابن بسام في كتابه الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة :« وحضرت اشبيلية على قدم الدهر...كل هذا جعل أمراء هذه المملكة يتربعون على عرش الملك والشعر متخذين من أنفسهم حماة للأدب ورعاة للأدباء والشعراء...» وبما أن ابن بسام أقر ذلك ،فلابد من الإقرار بصحة المقولة «لا يزدهر الشعر إلا في حجر الأمير»فالشعر ازدهر في دولة بني عباد، بداية من حكام تلك المملكة بداية من القاضي بن عباد، والمعتضد بن عباد، ليأتي المعتمد بن عباد،وتصلنا بذلك هذه النفحات الجميلة من شعرهم في مختلف الأغراض ،والتي بدورها تعد نقطة تميز تحسب لهذه المملكة وأمرائها ، خاصة إذ عرفنا بأن القاضي كان شاعرا، ويبدو من شعره أن جل ما كتب في تلك الفترة كانت تتجه إلى وصف الربيع بخضرته وورودة،وهذا ما تحدث عنه الحميري في كتابه «البديع في وصف الربيع» والذي تحدث فيه عن إسهامات أمراء بني

[1]-عبد الوهاب عزّام، المعتمد بن عباد، ص15.

[2]- المرجع نفسه، ص16.

عباد،والإسهامات الجليلة التي قدمتها أسرة بني عباد للشعر والأدب ، ذكر فقال :« فللّه ردهما من ملكين نفقا سوق الأدب الكاسدة وأصلحا حال العلم الفاسد فكثر وأدام اعتلائهما...»[1]

وهو مابين اهتمام الملوك الطوائف،وحصرهم إلى ضم اكبر عدد ممكن من الشعراء،ويقول القاضي في احد أشعاره:

يا حبذَا الياسمينَ إذ يزهرُ فَوْقَ غُصُونٍ رطيبَةٍ نُضَّرِ

قدْ امتَطَى للجمالِ ذروتها فوق بساطٍ من سندسٍ أخضرِ

كأنه والعيونِ ترمقهُ زمرّدٌ في خلالهِ جوهرِ.

وقال :

وياسمين حسن المنظر يفوق في المرأة وفي المخبرِ[2]

وكأنه من فوق أغصانه دراهم في مطرفٍ أخضرِ

وهذه الأبيات تكشف منذ الوهلة الأولى أن القاضي لم يكن شاعرا مقتدرا ومتقننا للقصيدة، لذلك صح أن يطلق عليه لقب شاعرا هاوٍ للشعر والفن فبنو عباد عرب من لخم، ورثوا السيادة والعزة وورثوا حب الأدب،لاسيما نظم الشعر،والإعجاب به، والمشاركة فيه والإثابة عليه، يقول الأستاذ بالنثيا في كتابه «تاريخ فكر الأندلس» «وكان الحال في اشبيلية شبيها بما كان عليه في المرية ،إذ طغى الشعر فيها على ما عداه من أضرب الأدب في ظل بني عباد، ولقد كان المعتضد والمعتمد من أعلام الشعراء» لذلك لا نستغرب أن يكون بلاطهما مدرسة تخرج فيها أهل الآداب، حيث «وصلت الخمريات،وشعر النسب والغزل أعلى درجات الكمال في هذا البلاط المصقول»[3]

[1]- الحميري، البديع في وصف الربيع، تح، هنري بيرس، دط، الرباط، 1940، ص3-4.

[2]- ابن بسام، الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحن إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1997، ص20.

[3]- عبد الوهاب عزّام، المعتمد بن عباد، ص22.

2- الحركة الاجتماعية:

إن المطلع على البيئة الأندلسية في القرن الخامس يجد أن المجتمع كان يتكون في الغالب من سكان البلاد الأصليين الذين انصهرت ثقافتهم وعاداتهم، بفضل نعمة اعتناقهم الإسلام في بودقة الشخصية الأندلسية، فتزوجوا أو تصاهروا مع العرب والبربر، فكان من الصعب تفريقهم عن المسلمين الآخرين ،وكان عددهم في ازدياد مستمر تبعا لزيادة اعتناق المسحيين للدين الإسلامي ،وظهر منهم أعلام كبار احتفظوا بأسماء عوائلهم الأصلية كابن بشكوال، وبني قومس ،وبني مرتين،وبني غرسيا وغيرهم.[1]

قد صنف المجتمع الأندلسي أو الاشبيلي في عصر الطوائف إلى طبقات وهذا التصنيف لم يكن عفويا، بل خضع لمعايير تماشت مع ذلك العصر ،فالمطلع على عصر اشبيلية في عهد بني عباد لوجده ينقسم إلى ثلاثة طبقات:

أولا: الطبقة الارستقراطية:

تتميز هذه الطبقة بحيازة الثروة أدى بها ذلك إلى الغنى ،وتشمل بذلك أفراد الأسرة الحاكمة(بني عباد)وكبار المالكين والأغنياء ،والأشراف.

«حيث انفردت الارستقراطية العربية بأقسام المرية وسيطرت على معظمها عن طريق السلطة، فالمعتصم بن صماد كان يمثل قمة الثراء والملكية»[2]

«وملوك الطوائف الذين كانت مصادر أموالهم قليلة، عمدوا على إثقال كاهل رعاياهم بالضرائب حتى يتمكنوا من الإنفاق في وجوه ترفهم من البناء والمتاع واللهو»[3]

[1]-ينظر: عمر إبراهيم توفيق، صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس هـ، دار غيداء، عمان، ط1433،1هـ، 2012م، ص41.

[2]- ينظر : عمر إبراهيم توفيق، صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس، ص92 .

[3]- بولعراس خميسي: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر الملوك والطوائف إشراف مسعود مزهودي ،كلية الدب والعلوم الإنسانية ، جامعة باتنة 2006-2007، ص61.

ما نستطيع ملاحظته من هذه الطبقة أنها كانت الأكثر ثراء في المجتمع الأندلسي، وبه استطاعت بسط نفوذها السياسي والإداري والاقتصادي في الأندلس ،وهذا ما تؤكده لنا قصة المعتمد ابن عباد مع زوجته اعتماده الرميكية «عندما رأت الناس يمشون في الطين فاشتهت المشي في الطين ،فأمر المعتمد ،فسحقت أشياء من الطين وذرت في ساحة القصر حتى عمته ثم نصبت الغرابيل ،وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب، وعجنت بالأيدي حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريها ،وقيل انه غاضبها في يوم من الأيام فأقسمت أنها لم تر منه الخير قط فقال لها :ولا يوم الطين؟ »[1]

فاعتذرت واستحيت ،هذا مصداق قول نبينا صلى الله عليه وسلم في حق النساء قال: «لو أحسنت إحداهن،الدهر كله ثم رأت منك شيئا فقالت:ما رأيت منك خير قط».

ثانيا: الطبقة الوسطى:

تميزت الطبقة الوسطى في دولة بني عباد أنها :«أنها تظم كبار التجار وأصحاب المشاريع والأعمال و موظفي الدولة التابعين، والمالكين ،بما فيهم المزارعون الكبار»[2]وأصحاب هذه الطبقة لا يتمتعون بترف الارستقراطية وبذخها، لكنهم لا يقاسون الصعوبات التي يقاسها العامة إلا أن أهم ما أرادته هذه الطبقة كان :الأمن الداخلي ،والعدالة والسلم الخارجي، والتي كانت أهم المطالب التي نادوا بها من السلطة .

ما يمكن ملاحظته من هذه الطبقة هو أن أفرادها لم تسمح لهم الظروف بالحصول على ثروات ضخمة،وبالتالي فإنهم عملوا على حماية ما يملكون «ويسعون إلى توسيع ثرواتهم على حسابهم من العامة قصد الوصول إلى الطبقة الارستقراطية»[3]

إلا أن أصحاب هذه الطبقة لم تكن نيتهم اقتلاع حكم الارستقراطيين، لا هم فقط يسعون إلى الوصول إلى ما هم عليه،ولم يشكلوا يوما خطرا على حكمهم أو عرشهم .

[1]- أحمد بن محمد المقري ، نفحْ الطيب من غصن الأندلس ،تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، 1833م ،ج4، ص172.

[2]- بولعراس خميسي، الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر الملوك والطوائف، ص64.

[3]- المرجع نفسه، ص65.

ثالثا: الطبقة العامة:

الطبقة العامة في دولة بني عباد هم الطبقة التي تحصل على قوتها من عمل أفرادها، وتتأثر بالظروف الخارجية والداخلية سريعا، يدخل ضمن هذه الطبقة من سكان المدن، أصحاب المشاريع الصناعية والصغيرة، والعاطلين عن العمل والمشردين من أبناء المدن الأخرى والجواري والعبيد، وقيل أنه حدث في دولة بني عباد:

«إنَّ أحد الباحثين قدَّر أجور العمال وأصحاب الحرف في القرن الخامس للهجرة بمعدل درهم ونصف في ثلاثة دراهم، وأن معدل سعر الكيلو غرام من الخبز كان يبلغ نصف في ظروف اعتيادية»[1].

هذه بعض المظاهر الاجتماعية التي يتميز بها المجتمع الاشبيلي في عصر ملوك الطوائف التي بينت مدى تفشي التعفن الاجتماعي والذي كان نتاجا لإفرازات النظام السياسي للطوائف الذي تشجع على مثل هذه الظواهر كيف لا وملوك الطوائف كانوا من أصحاب اللذة والتباهي التبذير والإسراف والانعزال عن المجتمع ،وكان همه الوحيد إشباع رغباتهم والتمتع بالحياة دون مراعاة السكان والأهالي .

وبعد أن تطلعنا للحياة الاجتماعية للبيئة الاشبيلية ،كان لابد لنا من الاطلاع عن أحوال المجتمع أنداك.

الحركة الاقتصادية:

لقد شهدت اشبيلية حركة اقتصادية واسعة، فقد شهدت ازدهارا ملحوظا نتيجة الاستقرار النسبي الذي شهدته المدينة على الرغم من الاضطراب السياسي والنزاع الدموي على السلطة، فقد شهدت الصناعة والزراعة والتجارة بشكل كبير في تنشيط السوق الزيادة والتنافس، وتحقيق الرخاء لأهل اشبيلية.

1- الزراعة: اعتمد المجتمع الأندلسي في حياته على الزراعة وخدمة الأرض بالدرجة الأولى ويعود ذلك إلى جملة من العوامل المساعدة ،مثل اعتدال المناخ ، وكثرة الأنهار والأودية التي توفر التربة الخصبة ،حتى قيل «كل ما استودع أرض اشبيلية نما وزكا، وجلّ...»[2]

[1]- بولعراس خميسي، الحياة الاجتماعية والثقافة للأندلس في العصر ملوك الطائف، ص63.

[2]- الرّوض العطار في خبر الأقطار: محمد بن عبد النعم الحميري، تحقيق، إحسان عباس مكتبة لبنان بيروت، ط2، 1984، ص59.

2- التجارة: تعد هي الأخرى من الأسس الهامة لنمو الاقتصاد، ويبدو أن من الشروط اللازمة لازدهار النشاط، هو الأمن للتجار واستقرارهم مما يسمح لهم بمزاولة نشاطهم بكل حرية.

« فبفضل أمراء اشبيلية ، تمكن التجارة من تكوين أموال استثمروها في بناء القصور»[1]

3- الصناعة:

لعبت الصناعة أيضا دورا أساسيا في تكوين دولة اشبيلية وتقويتها، وازدهرت بشكل كبير،خاصة في عهد القاضي أبي القاسم وابنه المعتضد.

وبذلك نستنتج بأن الحياة العامة التي شهدها المجتمع الأندلسي في فترة حكم القاضي، والمعتضد لا يختلف كثيرا عمّا هو سائد في باقي المماليك الأخرى، كما شهدت الحركة الاقتصادية نشاطا وازدهارا غذته الحِرف والمهن التي اتخذها السكان وسيلة للكسب من الزراعة وصناعة و تجارة، مهنٍ جعلت من اشبيلية مدينة آهلة بالسكان الذين توافدوا عليها من جميع الجهات طلبا للرزق والعيش الكريم، بالإضافة إلى التنوع الذي تشهده أسواقها.

الحياة السياسية:

لما انهارت الخلافة الأموية في الأندلس في أوائل القرن الخامس هجري انقسمت الأندلس إلى دويلات ، صغيرة ، وإمارات مستقلة ،وأعلن كل أمير نفسه ملكا ودخلت الأندلس في عصر جديد عرف باسم ملوك الطوائف[2]. واستمر عصرهم زهاء خمسين عام، وكان للطوائف أربع عشرة دولة في أرجاء البلاد.

وكان ملوكها من عصبيات مختلفة ،عربا وبربرا ومولدين (مسلمين إسباني الأصل)، وقد تقسموا بألقاب الخلافة، فمنهم تسمى بالمستعين،والمقتدر،والمعتصم، والمعتمد، والموفق والمتوكل إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية وقد اشتهر من مماليك الطوائف بنو حمّاد الأدارسة، في مالقة والجزيرة الخضراء ،بنو زيري البربر في غرناطة،وبنو هود

[1]- الرّوض العطار في خبر الأقطار: محمد بن عبد النعم الحميري، ص 60-61.

[2]- إسماعيل بن إبراهيم بن أمير المؤمنين، تاريخ المؤمنين من الفتح حتى سقوط خلال مخطوط، (تاريخ الأندلس)، تح، أنور محمود زناتي، عين شمس، مصر (دط) ،(د.ت)، ص50.

في سرقسطة، وبنو دي النون في طليطلة، وبنو الأفطس في بطليوس ،وبنو جهور في قرطبة، وبنو عبّاد في اشبيلية.[1] وقد كان أعظم ملوك بنو عباد الطوائف، وأفسحهم ملكا وأبعدهم صيتا، وأكثرهم ذكرا في التاريخ والأدب ،بنو عبّاد ملوك اشبيلية وقرطبه، قامت دولتهم في اشبيلية سنة(414هـ) ثم اتسعت ،فاستولت على ملك بني حمود في الجزيرة سنه(450هـ) وعلى الملك بني جهور في قرطبة سنة(461هـ) وامتدت حتى شملت مرسيلية في الشرق ،ودامت دولت بني عبّاد سبعين سنة وتولها منهم ثلاثة: أبو القاسم محمد، وابنه أبو عمر العباد، الملقب بالمعتضد ثم ابنه أبو القاسم وهو جدهم ،به أسفر مجدهم وهو الذي اقتنص لهم الملك النافر.

يعد هو مؤسس الدولة وملكها الأول، بعد عهد بني أمية فنجح في تدبير أمورها، عرف بالحزم والدهاء والقوة و كانت اشبيلية في عهده القوية لأنه أخد الرياسة من أيدي جبابرة وأضحى من ظلالها أعيان أكابر وفاز بأوفر حصة من الملك.[2]

غدت صفته به مختصة، فلم يمح رسم القضاء ،ولم يتسم بسمة الملك مع ذلك النفوذ والمضاء ، ومزال يحمي حوزته ويجلو عزته، حتى حوته الرجام، وخلت منه تلك الأيام.

توفى أبو القاسم عام(433هـ/1042م) ودفن في قصر اشبيلية وورث الحكم من بعده ابنه "المعتضد بن عباد" تولى الأمر واخذ البيعة لنفسه، كان جريئًا، حازمًا، فتاكًا، قويًا حتى أنه استمر بالحكم مستبد به ستة وعشرون سنة ،قاد الجيوش بنفسه ،وحارب كل ثائر وفتك بكل من خرج عليه ، وارتسى على أبعد غايات الجود، ولو لا بطش في اقتضاء النفوس،كدر على حصون من المملكة بني الأفطس وعلى لبة وعلى جزيرة "شلطيش" وشمرية الغرب، ثم فتح مدينة "شلب" وولى عليها ابنه المعتمد...[3]

وقام المعتمد بإلغاء مجلس والوجهاء وقضى على خصومه فصارت اشبيلية ، أقوى إمارات الطوائف التي بنيت على القوة والقسوة في أواخر حكمه وأصيب بدبحة صدرية تعاظم فيها نزيف للدم بعد أن رفض معاينة الطبيب

[1]- عمر فروخ تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس، ج4، دار العلم بيروت ، لبنان، 1984م، ص386 .
[2]- عبد الوهاب عزّام، المعتمد بن عباد، الملك الشجاع، الشاعر المرازّا دار المعارف، مصر ، ط2، ص11.
[3]- المرجع نفسه، ص12.

فزاد عليه ومات على أثره في 12 من الشهر ذي الحجة (عام461هـ) فأفضى الملك إلى ابنه المعتمد. فاكتحل من طرفه الرّمد، أقام في الملك ثلاثا وعشرين سنة لم تعدم له فيها حسنة...[1]

المعتمد ملك اشبيلية:

كان المعتمد بن عبّاد من الملوك الفضلاء والشجعان ، والأجواد، عفيف السيف والدليل أنه مخالفا لأبيه في القهر والسفك ، اخذ عن أبيه الشجاعة والقوة ، فخاض سلسلة طويلة من الحروب وكان المعتمد أثناء حياة أبيه المعتضد وليا لمدينة شلب واليا لها، عقب استيلاء بنو عباد عليها سنة 455[2].

حين توفى أبو المعتضد في 2 جمادى الآخرة عام461هـ و1069، وترك لابنه المعتمد عباد إمارة قوية ، فتولى المعتمد الحكم وعمره ثلاثون عاما ،وكان له صديق ومستشار يدعى ابن عمار، الذي عينه أكبر وزرائه لأنه يثق بقراراته وآراءه.

بدأت نجاحات المعتمد تذكر على ألسنة قومه بأنه ملك عادل وشجاع ، وقد ازدادت أطماع ابن عمار بتوسيع الدولة وتقويتها فاقترح على المعتمد فكرة الاستيلاء على "مرسية" التي كان يحكمها أبو عبد الرحمان بن طاهر، لكن منصب أبي عمار ومكانته صنعت فيه أو ولدت فيه نوع من الغرور والتكبر وعدم تقدير النعمة التي في يده، يقال ،إن علاقته مع المعتمد في أواخرها قد فسدت لدرجة أنه كتب له شعرًا يهجوه فيه هو وزوجته ،جعل المعتمد يرد عليه ويتوعده ،لكن ابن عمار حدث له مشكل مع جنوده بخصوص أجورهم وتأخيره عليهم ،لذا تمردوا عليه ،فذهب وطلب العون من بني هود في "سرقسطة"، لكن هم أيضا خذلوه فسجن، ليتم بيعه وقتها ،فقرر المعتمد شراءه[3]

[1]- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الشرق، عمان (د.ط)،1997، ص13.

[2]- المعتمد بن عباد في سنواته الأخيرة بالأسر، عبد الدين حمروش وزارة الثقافة والفنون للنشر دار الكتب القطرية قطر، دط ، د ت، ص32-33.

[3]- المرجع نفسه، ص34-36.

سقوط مملكة بني عباد:

لقد كان لدخول المرابطين إلى الأندلس أثر كبير في تحقيق الظفر التاريخي والنصر على القشتاليين في المعركة ، غير أن ملوك الطوائف سرعان ما عادوا إلى التنازع على السلطة ، متجاهلين بذلك حب الوطن وواجبهم الإسلامي ...

حتى قرر يوسف بن تاشفين "إبعادهم وتنحيتهم من على عروشهم والاعتماد على نفسه في وضع حد للزحف الاسباني، فبدا بإسقاط هؤلاء الملوك الواحد تلو الأخر، وكان المعتمد آخر أهدافه ،إذ خيره بين الاستسلام له والعمل تحت جناحه أو الموت[1] ".

ذكر ابن خاكان في كتابه "قلائد الأعيان":" بداية الصراع ووضعية المعتمد وقتها قال: ولما تم في الملك أمدُهُ، فأراد الله أن تخرّ عمده وتنقرض أيامه... بعدما نثرت حصونه وقلاعه، وسُعِّرت بالكاية جوانحه وإضلاعه، وأخذت عليه الفروج والمضايق، وثنت إليه الموانع والعوائق ، وطريقة طوارقها بالأضرار ، وأمطرته كل ديمة مدرار"[2].

يصوّر لنا المعركة التي جرت من المرابطين والمعتمد، والتي تم الاستيلاء فيها على مملكته، واقتحامها وأخذها غصا وكرها ولعل سقوط مملكة اشبيلية من قبل المرابطين، أكيد لم تكن سهلة لا لشيء إنما لأن تلك المملكة كان يحكمها ملك لا يخشى الموت أو يرضى الذل والانحناء،فقط كانت عائلته نقطة ضعفه لذلك كان المعتمد آخر هدفه ، والهدف من ذلك راجع إلى تخويف المعتمد وزرع الاضطراب في نفسه هذا من جهة، وإسقاطه لعلمه وشخصيته من عزة ومقدرة حربية من جهة أخرى.

يقول المراكشي: إن دخول الجماعة من الباب ودفع المعتمد إياهم كان الثلاثاء المنتصف رجب يقول :" إن الجيوش داهمت المدينة عصر ذلك اليوم من البر ومن الوادي ،ودام القتال أياما إلى أن جاء المرابطين أبي بكر بن

[1]- المرجع السابق، ص38-39.

[2]- قلائد العقيان في محاسن الأعيان ، ابن خاكان ، تونس، د ط، 1996، ص20.

تاشفين "بعساكر متضارة وحشود من الرعية متوافرة ، والناس من خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع وخالط قلوبهم الهلع...."[1]

النفي:

ظل المعتمد وعائلته أسرى في اشبيلية ثم أخذوا إلى المغرب ،حيث قرر "يوسف" بن تاشفين نفيهم، فمكثوا أولا في طنجة لفترة وجيزة ،حتى التقى المعتمد ببعض شعراء المدينة، أبرزهم "أبو الحسن بن عبد الغني الفهري ...." بعدها نقل المعتمد مجددا إلى طنجة إلى مكناسة ،ليمكث شهورا عدة ،لينقل في آخر سنواته مع بعض الملوك الطائف السابقين إلى "أغمات" حيث اقضي آخر أيام حياته في الأسر في ظروف مزرية ومعاملة سيئة إذ قال فيه ابن لبانة في وصف رحيله:

حَانَ الوداعُ فَضجَّتْ كلُّ صَارِخَةً وَصادح من مفداة ومن فادي[2]

سارت سغائنهم والنَّوحُ يتبعها كأنها إِبلٌ يحْدُو بهَا الْحَادي

كَمْ سَالَ في الْمَاءِ مِنْ دَمْعٍ وَكَمْ حَمَلَتْ تِلْكَ القَطائع من قطْعَاتِ أَكْبَادِ

ويذكر تاريخ جنود بني عباد أن المعتمد قد أصيب بمرض وهو في الأسر ما أصابه وما مر به وكيف انتقل من المجد إلى الأسر يقول ابن ملكان في كتابه:" قلائد الأعيان "ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات ،وجلده يتردد بين النكبات والعترات ونفسه تنقسم بالأشجان والحسرات، إلى أن شفته منيته..."[3]

يقول المعتمد وهو يحارب مأساته ولم يجد من يشكوه همه، يرى زوجته معلولة ومغلولة وبناته فقيرات يغزلن ليحصلن على لقمة العيش لكنه كان يتذرع بالصبر ويتجلد، وينظم أجمل قصائد الشعر المبكية، فتراه يخاطب قيده،لأنه قد ظل مقيدا حتى وهو في السجن

[1]- المعتمد بن عباد في سنواته الخير بالأسر،عبد الدين حمروش ، ص24-26.

[2]- ديوان المعتمد بن عباد ، ملك اشبيلية جمع وتح: دكتور رضا حبيب السويسي، دار تونسية للنشر 1095/1040، ص129.

[3]- ابن خاكان: قلائد العصيان في محاسن الأعيان ، 1996 ، ص22.

قيدي أما تعلمني مسلما أبيت أن تشفق أو ترحما

دمي شراب لك ولحم قد أكلته لا تهشم الأعظما

يبصرني فيك أبو هاشم فيثني القلب وقد هشما

ارحم طفيلا طائشا له لم يخش أن يأتيك مسترحما[1]

توفي المعتمد بن عباد في منفاه بعد ترحيله بخمس سنوات سنة 488هـ/1095م عن عمر ناهز الرابعة والخمسون سنة ،ظلت سيرة المعتمد عقب وفاته مليئة بالعبر، ولا يزال قبره في مدينة أغمات بالمغرب يزار إلى اليوم،لأنه كان ملكا عادلا ومقاتل شجاعا وأديبا وشاعرا نابغة ، انتزعت منه الإمارة في رمشة عين ، ليعيش أسيرا لا قوة له. يقول لسان الدين الخطيب يرثيه:

قد زرتُ قبرَكَ عن طوع بأغْمَاتِ رأيتُ ذلكَ مِنْ أولى المهَّماتِ[2]

لم لا أزورك يا أندى الملوك يَدَا وَيَا سِرَاجَ اللَّيالي المدلهَماتِ

أناف قبرك في هضب يميزه فتنتحيه حفيات التحياتِ

وكرمت حيا ومسيّا واشتهرت علًا فأنت سلطانُ أحياءٍ وأمواتٍ

[1] المعتمد بن عباد ملك اشبيلية جمع وتحقيق د. رضا الحبيب السويسي دار التونسية للنشر ، القاهرة ، 1975 ، ص106

[2]- المصدر نفسه، ص166.

الفصل الأول

الحس المأساوي بحث في المفهوم والبواعث

أولا : الحس المأساوي بين المفهوم اللغوي والاصطلاحي :

أ- الحس لغة:

الحس والحسيس: الصوت الخفي بكسر الحاء من أحسست بالشيء، يحسُّ حسًّا، وأحس به أي استعربه[1]

حين جاء في محكم التنزيل قوله تعالى:« لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا »[2] الأنبياء الآية 102

وقد تنوعت المفاهيم اللغوية في مفهوم الحس،فقد وردت كلمة الحس في المعجم تاج اللغة وصحاح العربية بالمعنى التالي: «استأملوهم قتلا ،وحسن الدابة فرجنها، والمحسة بكسر الميم الفرجون والحواس: المشاعر الخمس وهي:البصر ،السمع،الشم، الذوق ،اللمس. وأحس الشيء وجد حسه»[3].

ومن هنا يتضح لنا أن معنى الحس والحسيس يختلف مدلوله باختلاف موضعه في الكلام.

وجاء في قاموس المحيط: «أحِس بكسر معنى رفقْتُ له»[4].

وجاء في المعنى نفسه في قاموس الوسيط ،أنه يقال:« حسّا ،تألم ،آلامه، وعطف عليه،الحسُّ هو قوي الإحساس»[5].

وجاء أيضا في المفهوم اللغوي للحس: «الحس: هو الصوت الخفيُّ الحركة، قوة إدراك المحسوسات»[6].

والحس: «مصدر حسس ، الصوت الخفيف الذي تسمعه مما يمر قريبا منك ،ولا تراه، وهو خفي الأشياء كلها»[7].

---

[1]- ابن منظور،لسان العرب ،ج6،مادو(حس)، دار مادر، بيروت ،لبنان ،ط3، 1994،ص94.

[2]- سورة الأنبياء الآية :102.

[3]- الجوهري أبي نصر إسماعيل بن حماد، تاج اللغة ومحاح العربية تح ،محمد محم تامر،أنس محمد الشامي،زكرياء، جابر أحمد ،دار الحديث، القاهرة،مصر،2009، ص249.

[4]- الفيروز آبادي ، قاموس المحيط ،مادة(الحس)، دار الكتب العلمية بيروت ،لبنان ،1999م ،328.

[5]- مصطفى إبراهيم وآخرون ،قاموس الوسيط، مادة(حس) ،المكتبة الإسلامية اسطنبول، تركيا، ص172، 173.

[6]- عزة عجان قاموس عربي ،للتلاميذ والطلاب، دار هومة، للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة الجزائر،(د س)، ص205.

[7]-أمل ع العزيز، قاموس العربي التأمل .(عربي عربي)، دار الراتب الجامعية، ص291.

الحسُّ: هو الحركة والصوت الخفي....»[1]

المأساة لغة:

جاء في معجم الوسيط:" يئس منه ييأس، ويِيئس، يأسا ويآسة: انقطاع أمله منه وانتقى فيه،فهو يأس ويؤوس، ويئس[2].

يرى بعض الدارسين أن المأساة تعبر عن الحياة النفسية للأفراد من خلال نقاط مقدمة في الواقع المعاش ،كما تبدو انعكاساته ، وفكرة الألم لدى الإنسان في فلسفة الأديان تتمثل في مفهومها المسيحي ووسيلة للبرهان عن ظلم الوجود الإنسي المؤسس على الخطيئة.

والمأساة هي: «اليأس والقنوط من الرجاء وهو قطع الأمل يأس ، ييأس يمنع ويضرب ونفي لفقدام الأمل والاستسلام»[3]

كما أن المأساة مأخوذة من مادة (يأس)« واليأس والقنوط وقيل اليأس نقيض الرجاء»[4].بمعنى التخلي عن حلم ما والابتعاد عن الهدف المنشود ،فمن مادة أسو، وأسى نجد أن:«(أسا) الجرح والضرر... والأسا الحزن وهو أسوان:حزين: آسيت عليه حزنت»[5].فالأسى بمعنى الحزن الذي يأتي من الجرح والألم فمادة "أسى" «"الأسى" بمعنى الحزن ، أسى أي حزن ،وقد آسيت لفلان أي حزنت له»[6] وعلى هذا فالمأساة نصب في قالب واحد وهو الحزن، الألم ،والجراح التي سببها اليأس والقنوط كما نجد معناها في مادة "أسى" بمعنى «أسى: الهمزة

---

[1]- جورج متري عبد المسيح، لغة العرب(معجم مطول اللغة للغة العربية ومصطلحات الحديثة)، ج1، مكتبة لبنان، ساحة رياض ،بيروت ،ط1 1998 ،ص185.

[2]- مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولي، مصر، ط4، مادة يئس ،2004،ص1062.

[3]- ابن منظور، لسان العرب ،ص268.

[4]- إبي فضل، جمال الدين، محمد بن مكرم، ابن منظور ،لسان العرب،دار مادر،بيروت، لبنان، (ط1)،(د ت) مادة يأس، ص256.

[5]- الفيروز آبادب القاموس المحيط، ص56.

[6]- الجوهري،الصحاح تاج اللغة العربية وصحاح العربية،ص40

والسين والياء كلمة واحدة وهو الحزن ، يقال أسيت على الشيء آسي ،أسى ، أي حزنت عليه»[1] بمعنى الألم الذي تصدره الفاجعة،فمادة "مأس"«مأساة: فاجعة تمثيلية تدور حول حادثة خطيرة، وقعت بين أناس عظماء مادة من شأنها أن تثير الرعب أو الشفقة وتنتهي بخاتمة محزنة»[2]

والتعب والشقاء الذي خلفته هذه المأساة «فمأساوي فاجع، مفجع (نهايته)»[3]وهي في النهاية المؤلمة والقاسية.

وردت مادة «أسى: يؤاسي ،مؤاساة الرجل: عزاه وسلاه»[4] أي أنساه جرحه.

ومن المادة ياقوت: «يأس، تيئيس فلان: افقده الأمل يأس : مصدر يأس ، القنوط، تنقض الرجاء»[5]. بمعنى فقدان الأمل في الحياة والخروج عن المحتمل.

ب- الحس والمأساة اصطلاحا

1 –ب- الحس اصطلاحا

يعد الإحساس من عمليات التحكم التنفيذية التي تمكن الكائن البشري من فهم العام الخارجي والسيطرة عليه ، فكل ما ندركه أو نتعلمه من العالم الخارجي تزودنا به الحواس المختلفة .

إذ أن هذه الحواس تنقل لنا الانطباعات الحسية المختلفة عن المثيرات البيئية إلى المناطق المختصة في الجهاز العصبي،كي يتم تفسيرها وإعطاءها المعاني الخاصة بها، والحس نابع من المشاعر، يقترب من لفظ الإحساس، ليشترك معه في الوحدات الصوتية ، ويختلف عنه في الدلالة ، ويمكن القول عن الإحساس انه العملية الحيوية التي

[1]- ابن حسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، مقايس اللغة ،ج1مادة (أس)،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،ص64.

[2]- يوسف محمد رمنا معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة معجم ألف ياتي ، بموسع في اللغة العربية ن مكتبة لبنان ، ناشرون،(د ط)، (دت)،ص1400.

[3]- المرجع نفسه نص 1401.

[4]- عيسى مومي، المنار قاموس لغوي عربي- عربي-مصطلحات علمية ، تقنية، أدبية، سلسلة قواميس ، دار العلوم، (د ط)،(د ت) ،ص16.

[5]- يوسف محمد رضا، معجم العربية الكلاسيكية المعاصرة ،ص1751.

يتم من خلالها استقبال المعلومات عن العالم الخارجي عبر الحواس المتعددة، التي يمكن الفرد من الوعي بخصوص المثيرات المختلفة...[1] وهذا الأخير يقول عنه ابن الأثير(هو العلم بالحواس الذي يتم عبر القوى الخاصة)[2].

أما أفلاطون فقال:(أنه أمر فردي متغير حيث أنه يعتري الإنسان كرد فعل طبيعي للمؤثرات والمنبهات المحيطة به وهكذا فإن الحس قوة ملكة في حين الإحساس ظاهرة لا غير)[3].

وبناء عليه إذن فإن الحس يتجاوز الإحساس إلى الإدراك الذي ليس له لون فيبصر أو صوتا فيسمع، ولكن ذلك يدرك بالفعل العقلي، ومن خلال هذه المفاهيم يتضح لنا بأن الإحساس هو العامل الأساسي في عملية التواصل بين الإنسان وعالمه الخارجي حتى يتمكن من التواصل، التكيف، والعيش.

2- ب المأساة اصطلاحا:

إذا أردنا الغوص في مصطلح المأساة والكشف عن أسراره فإنه لابد من إدراجه في حقله الأعم ألا وهو المأساة هذه الخير التي كانت رفيقة الإنسان منذ الأزل بل أنها ارتبطت ، مع سيدنا آدم عليه السلام مع الخطيئة الأولى، وكان ذلك بإيعاز من الشيطان حينها أكل " آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما المولى عزّة وجلّ فأصبحا نادمين حزينين مصداقا لقوله تعالى:

«فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾»[4]. إنها غواية الشيطان وعصيان سيدنا آدم عليه السلام ،وهذه أول خطيئة بني الإنسان في الجنة التي خرج منها ونزل إلى الأرض، وهنا تبدأ مأساته الحقيقية، تبدأ معها رحلة

[1]- عماد عبد الرحيم علي فالح الهنداوي : مدخل على علم النفس، دار الكتاب، الجامعي ، العين الإمارات العربية المتحدة،ط8 ، 2014، ص101.

[2]- محمد كشاش، اللغة والحواس، (رؤية في التواصل والتعبير بالعلامات غير اللسانية) المكتبة المصرية، بيروت، ط1،2001م،ص29-30.

[3]- جميل صليبا ، المعجم، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، لبنان، ط1، (د ط) 1982م،ص467.

[4]-سورة طه، الآية:121.

العذاب والأحزان مع ذريته ويبدأ الغل والكره وحتى القتل مع قابيل وهابيل، ويقول عز وجل: «فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾»[1] وتتواصل المأساة مع أنبياء الله ورسله ، وعلى سبيل الذكر لا الحصر مع سيدنا نوح عليه السلام ،وغرق ابنه في الطوفان كما جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: «رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ».[2] وكذلك مأساة سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام حين ابتلى بذبحه بأمر من الله تعالى الذي فداه بذبح عظيم ،كما جاء قوله تعالى: « وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ »[3] وهذا من مأساة سيدنا إبراهيم وابنه عليهما السلام إلى جانب ذلك نذكر أيضا مأساة سيدنا يعقوب عليه السلام الذي أصيب بالعمى من شدة حزنه على ابنه سيدنا يوسف عليه السلام، تولت مأساة الأنبياء إلى قمتها وذروتها مع خاتمهم جميعا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي عرف اليتم في صغره ، التكذيب والتشريد في كبره في سبيل تبليغ رسالته المحمدية التي كان يعاني من أجلها المحن والأهوال في شعاب مكة، أين أبتلى فيها بموت الطاهرة خديجة رضي الله عنها ،وموت عمه أبي طالب، اللذان كانا مصدرا للأمان والحنان لذلك سمي ذلك العام بعام الحزن ،حيث حكى تعلب عن ابن العرابي قال: «ماتا قبل الهجرة بثلاثة سنين»[4].

[1]- سورة المائدة،الآية: 30 .

[2]- سوره هود،الآية: 45.

[3]- سورة الصافات، الآية: 107 .

[4]- الزبيدي ،تاج العروض من الجواهر القاموس، دار الفكر، بيروت لبنات، مج 18، ص137.

كما انه عليه الصلاة والسلام قد حزن لفقد فلذات أكباده، أبو القاسم وإبراهيم في المعنى الحديث: «وإنَّا عَلَى فراقِكَ يَا إبراهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[1]. ويزداد ألمه حين يهاجر بدينه إلى المدينة المنورة، ويفارق الوطن مكة المكرمة التي يجذبه الشوق والحنين إليها ، فإذا حدث عنها يسأل المتحدث أن يكف ، ففي رواية قدوم أصيل الغفاري من مكة وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسأله: يَا أصيلُ كيف عهدت مكة قال:والله عهدتها قد اخضر جناحها، وبيضت بطحاؤها ،وأَغْدَقَ أدخرهَا وأَسِلتْ ثَمَامُهَا، وأمش سلمها...فقال النبي صلى الله عليه وسلم:«حَسْبكَ يَا أصيلُ لَا تحزَنّا»[2] إضافة على ذلك كان هناك الكثير من المآسي والأحزان في حياته صلى الله عليه وسلم إلا أنها لم تنقص ولم تثن من عزيمته في سبيل تبليغ رسالته التي بدأها وأصبحت الدولة يعتز بها الإسلام لتصدح في كل فجٍّ بأسمى معاني التوحيد.

كما أن مصطلح المأساة يعد مصطلحا يوناني المنبع والنشأة وقد ارتبط في تلك الفترة بالطقوس الدينية والآلهة وتحديدا بإله يدعى دينيزيوس الذي يمثل إله الحزن والسماء الذي يعيش في فصل الربيع وعلى هذا الأساس عاشت اليونان الملهاة الحياتية والمأساة عند موته، في فصلي الشتاء والخريف، وصارت تطلق فيما بعد على المسرحيات التي تبعث الرعب بما تصوره من الأحزان محزنة، أو ما يشيع فيها الحزن ، ونتيجة تصادم العواطف[3]، ويعرف أرسطو المأساة أنها: «محاكاة أي حدث يثير انفعال الألم وغالبا ما ينتهي بالموت»[4].وتعريف أرسطو هو أشهر التعريفات فهو يرى«بان المأساة هي محاكاة لحدث يتميز بالجدية وبأنه مكتمل في ذاته نظرا لما يتسم به من عظم الشأن في لغة لها من المحسنات ما يمتع، وكل من هذه المحسنات يأتي على حدى ،في أجزاء العمل ،وذلك في إطار، درامي وليس قصصي ،أما الوقائع فهي تشير إلى مشاعر الشفقة والخوف وبذلك تحقق التطهير المرجو منها

[1]- رواه البخاري والمسلم.

[2]- يحي الجبوري،الحنين والغربة في الشعر العربي ،دار مجدلاوي، عمان،الأردن،16-2008،ص12.

[3]- محمد بوزاوي، قاموس مصطلحات الأدب ،دار مدين، الجزائر،ط1، 2003،ص233.

[4]- محمد التونجي، المعجم المفضل في الأدب، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ،ط2 ،(د ت) ،ص747.

لهذه المشاعر»[1]. ومن أهم التعريفات التي جاءت بعد أرسطو تعريف: "هيغل" ونيتشه، و"شوبنهاور" .إذا قالوا: «أن الفن المأساوي هو الذي يعكس المأساة في الحياة وأن المأساة تثيرنا وتطهرنا بأكثر مما تثيرنا وتطهرنا مشاهدتنا[2]».

إذن من خلال هذه التعاريف نلاحظ أن تعاريف المأساة تتضارب وتختلف وتبقى كلها وجهات نظر تقبل المناقشة والدحض.

كما أنه يمكننا الإشارة إلى أن المأساوي يحيلنا إلى التمييز بين دلالتين مختلفتين الأولى هي المسرحية المأساوية التي عرفت عند اليونان، أما الثانية فهي النفحة الأدبية.

تلك النكهة التي تغلب على عمل أدبي معين وتصدر عن مزاج الأديب ،وتصوره وتخرجه للعالم طريقته في التعبير، من النفحات الأدبية ما يليق، بها الشعر،وهي النفحات الملحمية والغنائية والمأساوية، لتكون المأساوية مشاعا فنيا وأدبيا في الرواية والقصيدة والموسيقى والرسم....

تعريف البعد المأساوي:

إن معنى هذا المصطلح يندرج ضمن الحقل الأعم هو المأساة ليكون« المأساوي ضربا في المرآة التي يرقب فيها الإنسان على الدوام و بقلق زائد ، ذلك المزيج من القوة والضعف الذي يحدده كيانه وهذه الديمومة للمأساوي تسمح على الدوام باستحضار تراجديا الماضي»[3] التي تحمل الأسى والحزن الوجودي بمعنى المأساوية التي«لا تعني الحزن الأخلاقي[....] فالحزن الوجودي يتعدى المسائل الشخصية إلى تلك المتعلقة بالوجود كله بعيدا عن الأحزان الظرفية الفجة التي لا تبصر من الأشياء إلا جانبا واحدًا»[4]. فهي عالم يكتنف الإنسان وكل وما يحيط به

[1]- مولين ميرتسنت، كليفوردلس، الكوميديا والتراجيدي ،تر:علي أحمد محمود ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ،1979، ص105.

[2]- محمد التونجي، المعجم المفضل في الأدب ،ص747.

[3]- محمد أمين بحري :المأساوي في الأدب العالمي المصطلح الكامل ،الأشكال،مجلة الآداب واللغات ،جامعة الجزائر،العدد 23،4،210.

[4]- عز الدين إسماعيل : الشعر العربي المعاصر قضاياه ، وظواهره ، ط3 ، دار العودة، بيروت ، 1981،ص370.

من«إحساس بالإحباط والتمزق النفسي» بسبب الانكسارات التي تحاذي الإنسان كالغربة، والاغتراب[1].والحنين والموت والرثاء.وشكوى الدهر، والأوضاع التاريخية السيئة التي تتسبَّبُ في ظهور البعد المأساوي، ليصدر الأسى والحزن الفاجع في الحياة ،لهذا كان شكلا من أشكال الدراما التي تعبر على محنة البشر ومعاناته مع العلم أن هذا المصطلح يتمركز في ساحة الإبداع، الحاملة للمأساة والمعانات لأنه يختلف من حدث إلى حدث من شخص لآخر ولهذا عنيت المأساوية بالحزن والأسى الوجودي فهي تستوجب بالضرورة الأحزان.

تعريف الحس المأساوي:

قد يكون من الصعب أن نضع تعريفا لأي ظاهرة من الظواهر الإنسانية التي تتعلق بالنفس، وذلك أن النفس الإنسانية غريبة الأطوار ومتغيرة الأحوال بين لحظة وأخرى ولا يمكن القبض على متغيراتها وعناصرها ومميزاتها بسهولة و حصرها في كلمة أو جملة ، وتزداد الصعوبة في وضع التعريف إذا قلت الدراسات المختصة في الظاهرة نفسها وكذا إذا كانت الظاهرة الغير محسوسة وغير واضحة المعالم والحدود ذلك أن الظواهر الاجتماعية والطبيعية هي اقرب وضوحا وتجليا للباحث الأكاديمي من الظواهر الإنسانية.

وبالتالي يسهل تحديدها وقياساها وحصرها ومراقبتها بينما الظواهر النفسية المعقدة فمن الصعب جدا وضع تعريف لما نسميه بالحس المأساوي . إذ يتعين علينا عندئذ أن نجمع طبيعة هذا النوع من الحس ومجال نشاطه في عبارة موجزة وتعريف أوجز ، وهو أمر قد لا يتيسر ،إلا بعد معاينة قدر كافي من التجارب التي يتمثل فيها هذا الحس إلا أننا من غير شك ندرك هذا الحس المأساوي إدراكا مبهما حتى إذا كان ما عايناه قلنا على الفور هذا هو[2]. لما كانت" المأساة" اسما لنوع أدبي معروف هو ذلك النوع الذي يكشف لنا عن "مأساوية الحياة"أي عما يقع أو يتمثل في الحياة على نحو مثير للحزن والأسى عندئذ نفهم في بساطة أن الحس المأساوي هو الحس الآسيان أو الحزين ، ولا بد أن نوضح هنا مفهوم الأسى والحزن غير مفهوم المأساوية، وذلك أن المأساوية تعني الأسى أو

[1]- محمد أمين البحري: المأساوي في الأدب العالمي(مصطلح الكامل ،الأشكال)المرجع السابق،ص23.

[2]- ينظر د. عز الدين إسماعيل (روح العصر) دراسات نقدية في الشعر والمسرح والقصة ندار الرائد، بيروت، لبنان،1978، ص187.

الحزن الوجودي، أي الذي يتمثل في الوجود كله ، ويعد جزءا أو عنصرا أساسيا في صميم تكوين هذا الوجود وليس حزنا أخلاقيا :أي ليس تقديرا شخصيا لما يصيب الأفراد من أحداث مأساوية .

أما الحزن الوجودي فشيء يتجاوز حدود الأشخاص ليستقر في كيان الوجود كله، ومن هذا المنطلق فالحزن لفقد عزيز على سبيل المثال هو حس آسيان أو حزين ولكنه غير مأساوي ،لأن الآخرين قد يشاركون في هذا الحزن أو لا يشاركون إنه حزن صادر أولا وقبل كل شيء عن واقعة شخصية...[1]

وإذا رجعنا وقلنا أن الحس المأساوي يرتبط بالوجود كله وغير مجزأ ندرك أيضا أن الوجود يتكون من وحدة الزمن ووحدة الكون.

أمَّا عندما نتحدث عن الحزن الوجودي ،فهو حزن غير شخصي وله صفة الدوام ويتعلق بالوجود أو بالكون كله، وله بعد هذا وجوده الموضوعي، من هذا كله يتضح لنا أن الحزن غير"المأساوية "وأن إحساسنا بالحزن غير إحساسنا بالمأساة أن (الحس المأساوي حس يتجاوز الحزن ويعلو عليه ،أي يتجاوز الكيان الشخصي إلى الكيان الكلي أو العام، ولهذا لابد أن يكون حسا متميزا وغير متاح لجميع الناس فكل الناس قادرون على أن يحزنوا حين تأم بهم المصاعب ، ولكن قليلا منهم من هم على استعداد لإدراك مأساوية الحياة، وأقل من هؤلاء من هم قادرون على التعبير عن هذه المأساوية[2]. ولعل صعوبة تحديد وضبط مفهوم الحس المأساوي دفعت الفيلسوف (نيتشه) ويقول ويعرف المأساوية على أنها اللامفهوم واللامشروح[3].

إضافة إلى (نيتشه) نجد الدكتور (أنطوان معلوف)يشير إلى صعوبة تعريف المأساوية قائلا: (إذا ألم بنا إغراء تحديد المأساوية وإغراء التحديد داء العقلانيين ،داء سقراط وجب أن نلجم هذا الإغراء فالمأساوية تثير السؤال شأن كل أمر ولكنها تمنع الجواب عنه. ذلك أن الجواب أي الجواب يتربص بها خطران الأول أن اللغة تركيب

[1]- ينظر: د.عز الدين إسماعيل، روح العصر ،ص188.

[2]-المرجع نفسه ،ص189.

[3]- أنطوان معلوف، المدخل إلى المأساة والفلسفة المأساوية، مؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع،بيروت ،(ط1)،ص82.

إنساني أو اصطلاح من فضل البشر ،وهي بالتالي عرضه للنقص والنسبية، والثاني أن الجواب عن سؤال ليس هو في الواقع أن الجواب الأفضل والأنسب ولكنه ليس الجواب المطلق و النهائي)[1].

ويضيف قائلا في هذا الباب: (والواقع أن المأساوية هي الأصل السابق للاعتبارات العقل لا يمكن أن تحدها هذه الاعتبارات وبالتالي نقدر أن نعطيها تحديدا فنكتفي بمحاولة التقرب منها)[2].

ويضيف الدكتور "أنطوان معلوف"محاولا التقرب أكثر من تحديد مفهوم "للمأساوية" حيث يقول: (وقد يظن البعض الأخر أن المأساوية (شعور) يلم بالإنسان متى اهتزت القيم في وعيه بفعل (واقع رهيب) والواقع أنها ليست شعور بل إنها شيء تشعر به)[3].

لقد أدرك بعض الشعراء حقيقة الوجود وتوصلوا إلى ما يسمى (وحدة الأم الإنساني)أي نقل المعانات الشخصية الجزئية إلي مستوى المعانات العامة والشاملة للحياة بأسرها، ولعل الشاعر الإنجليزي الكبير(ت . س .إليوت) وقد عبر عن الوحدة الزمن حينما قال بيته المشهور(في بدايتي نهايتي وفي نهايتي بدايتي)[4].

أما إذا حاولنا تحديد مفهوم الحس المأساوي انطلاقا من التركيب اللغوي فإننا نقف عند كلمة(مأساوي) التي وصف بها هذا الحس، أما كلمة "الحس" فدلالتها غير الإحساس لأن الإحساس يعتبر ظاهرة مرفولوجية وشعور بها يحيط بنا من مؤثراته حسية، أما الحس فهو بمثابة الملكة أو القوة وليس شعورا أو استجابة للعام الخارجي وإنما هو نوع من الإدراك تعدى الوجدان إلى العقل والشعور إلى الفكر وربما اقترب من المصطلحات التالية:الوعي المأساوي ، الفكر المأساوي، الرؤية المأساوية.

ومنه فإن مصطلح الحس المأساوي يتناسب مع عالم الشعر وطبيعة التجربة الشعرية وكدا مصطلح "الحس" فهو مصطلح بعيد عن المنطقية وقريب كذلك من عالم الشعر أكثر من المصطلحات الأخرى .

---

[1]- أنطوان معلوف، المدخل إلى المأساة والفلسفة المأساوية، ص119.

[2]- المرجع نفسه،ص119.

[3]- المرجع نفسه ،ص120.

[4]-عز الدين إسماعيل ،روح العصر ،ص190.

وكلمة(مأساوي)هذه الصفة هي بطبيعة الحال مشتقة من (المأساة) وهي النوع الأدبي المعروف والذي يبرز ويكشف عن مأساوية الحياة. بمعنى تمثيل لما هو في الحياة على نحو يثير ويبعث الحزن والأسى، لكن هنا ليس المقصود من كلمة المأساوية ذلك الأدب الذي يعرض على مسرح ويتعلق بالموضوعات المحزنة كما ذكر من قبل[1].

كما يجب علينا أن ننوهه هنا أنه من الممكن أن ينطوي أي فن من الفنون على المأساوية، وهذا متوقف على مدى وعي الفنان فمن كان صاحب وعي وحس مأساوي عبر عن مشاعره المأساوية أو معاناته لأمر مأساوي سواء بالرسم أو غيره...[2]

وبالتالي فإن الروح المأساوية يمكن أن تنطوي عليها الفنون جميعها كالفنون الأدبية من مسرح، وشعر، وقصص، وروايات وغير ذلك، كما أن المأساوية لا ترتبط بزمان أو مكان معين ، والمأساوية التي نقصد إليها هنا لا علاقة لها بالمأساة وإن تكن ثمة علاقة بينهما فإن المأساة هي التي اشتقت من المأساوية لا العكس، وهو ما أشار إليه أحد الباحثين قائلا: (المأساوية هي الأصل لا المأساة نظير أما الموت هو الأصل لا الجنازة والمأتمُ)[3].

إلا أننا نستشف أن هناك فرقا كبيرا بين أن تعيش المأساة و أن تدركها، هو نفس الفرق بين أن تكون حزينا وأن تدرك معنى حزنك، فبين الرؤية الغائمة والإدراك الناصح يتراوح الوجود بين ظاهري ماثل للعيان ومدرك كلي[4].

كما أن الإطار المأساوي العام للموقف الحزين هو الذي يمثل في الوقت نفسه الإدراك الشعوري لمأساوية الحياة والإدراك الشعري هنا الصورة المقابلة للإدراك التجريدي، فالشعر يواجه الوقائع المفردة في الحياة، الوقائع الصغيرة التي يمكن أن تكون نافذة على العالم الكبير أو التي تتركز فيها صورة هذا العالم.

---

[1]- ينظر: أنطوان معلوف. المدخل إلى المأساة والفلسفة المأساوية ،ص130.

[2]- أنطوان معلوف، المدخل إلى المأساة الفلسفة المأساوية،ص130.

[3]- المرجع نفسه،ص131.

[4]- ينظر: عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر،قضايا وظواهره الفنية والمعنوية، دار العودة،بيروت،ط5، 1988،ص350.

صلة الحس بالمأساة:

إذا حاولنا الغوص والبحث في الصلة أو العلاقة المتواجدة بين الحس والمأساة، فإنه لاشك من وجود فرق لدى الباحثين فيما يخص النوعية والغاية بين الحس والمأساة وبين الشعور بالحزن، وبين لذات الحس الجسدي ومناهج الشعور الوجداني ، نظرا لاضطراب المقاييس الحية بين شخص وآخر انطلاقا من المدركات الحس المادي واختلافها عن مدركات الحس الوجداني. ومن هنا نجد اختلاف الإحساس بالمظاهر المأساوية للمواقف وانعكاساتها على الشعور الداخلي وعلى مواصفاتها الخارجية حيث تختلف عند عموم الأفراد الجماعات من نقطة التفاوت الكلي إلى النقطة الالتقاء الكلي.

من هذا كله نجد من الباحثين من يذهب إلى القول (الواقع أن ثمة اختلافا في التقاء الناس على المأساة ليس فقط بين شخص وآخر بل بين بيئة وأخرى عصر وعصر أيضا)[1].

يذهب الدكتور عز الدين إسماعيل: (أن الرؤية الحسية ذات وجه واحد فأنت حين تنظر فإنك تنظر في اتجاه واحد، فترى وجها واحدا من الأشياء، وقد ترى أنصع الوجوه أو أبشعها فإذا تعددت وجوه الرؤية لم يعد ظاهرة الأمر موضع التقدير، حيث تصل إلى مرحلة الحكم الأشياء وإنما يتولد تعارض الوجوه المرئية مدرك شعوري يختلف على كل وجه من وجوه ، الرؤية لأنه تنازل عنها وتجاوزها)[2].

لتوضيح العلاقة الحسية المأساوية وتبيانها فإن الباحثين والفلاسفة القدامى خاصة قد أطلقوا كلمة (التراجيدية) على المأساة وكانت لهم آراء ومواقف حول ظاهرة الحس المأساوي على سبيل المثال لا الحصر "هيجل" يعتبر التراجيدية (المأساة)، ظاهرة موضوعية نتيجة التفاعل التاريخي والاجتماعي كما تعرض إلى شكلها الفني واعتبره تعبيرا عن مضمونها الغني والواسع في كتابه (ظواهر الفكر) يتطرق "هيجل" إلى بعض المسرحيات، معتبرا إياها جزءا هاما من تطور الفكر العالمي، وكانت هذه المسرحيات تعالج المأساة.

[1]- ميشال عامي، الفن الأدب، منشورات المكتب التجاري للطباعة النشر بيروت،1970، ص64.

[2]- عز الدين إسماعيل ن الشعر العربي قضاياه وظواهره الفنية ،ص350.

في كتابه(عالم الجمال) تطرق "هيجل" إلى معالجة المسرحيات المأساوية لكتاب الأغريق ومسرحيات شكسبير التراجيدية من خلال هذه النظرة...[1]

يذهب هيجل في التسريح المأساة محاولا الإلمام بمفاهيمها معتبرا أن التاريخ العالمي يكشف للإنسانية عن خط يسير نحو الصعود متسما بالتناقض ذلك أن الصراعات والنهايات المأساوية للشخصيات والأمم تعكس مراحل التحول والانعطاف في مسيرة هذا الطريق.

مما سبق نستخلص أن المأساة هي عبارة عن شعور داخلي حسي، أما الحس فهو ترجمة لموقف شعوري هو "المأساة".

من هنا قد يكون هذا الحس ماديا ظاهريا وقد يكون داخليا مكبوتا في مشاعر الإنسان ولا تبوح به خوالجه.

ثانيا: بواعث الحس المأساوي:

إن الحزن والمأساة من أهم وأقوى الانفعالات النفسية على الإنسان، لا بل وأشدها وقعا، ذلك أن الحس المأساوي لم يأت من فراغ بل كانت له أسباب أدت إلى حدوثه، وهي بواعث عديدة متنوعة من ذلك باعث: الأسى، الهم، الخوف،الأسف، اللهف ،الموت، الجرح، المأساة، الغربة، التمزق، الحرب، الضياع ....

1- الأسى: وتعني الحزن[2]،أي حزن على كل شيء يفوت، يقول المعتمد ابن عبَّاد يرثي ولده وهو في أشد حزنه:

فَمالي لَا أَبْكي أَمْ القَلْبُ صَخْرَةً وَكَمْ صَخْرَةً في الأرضِ يَجْرِي بِهَا نَهْر [3]

ولقد وظف الشاعر وليد قصّاب من خلال ديوان "أشعار من زمن القهر"أبياتا تدل على الأسى ويقول:

نكثت جراح

[1]- ينظر عدنان رشيد ،دراسات في علم الجمال ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت،ط1، 1985.

[2]- عز الدين إسماعيل، الدب وفنونه (دراسة ونقد)، دار الفكر العربي، القاهرة ،مصر ،ط1، 2002،ص82.

[3]- ديوان المعتمد بن عبَّاد، ملك اشبيلية،تح ،رضا الحبيب السويسي،ص165.

حفرت أخايد الأسى[1]

2- الهم: هو من الحزن، ما يذيب الإنسان، ويوجز معناه الغزالي بقوله:«الهم وهج ساجور والنفس» يقول أبو بكر بن اللبانة:

ونحن من رُعَبِ الشطرنج في يدهِ ورُبَّما قُمِرت بالبيدق الشاةُ

انفضْ يديْكَ من الدُّنَيا وسَاكِنِها فالأرضُ قد أقفرت والناسُ قد ماتوا[2]

3/ الخوف: تجمع المعجمات العربية على أن الخوف هو الفزع. وضده الأمن والأُنس يقول عزَّ وجلّ:

« وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا ﴿١٢٨﴾ »[3].

فالشاعر عندما يشعر بالخوف تتكون عنده ما تُعرف بالمأساة أو الحس المأساوي ، فيجعل بذلك من قلمه أو حبره أداة للإبداع الفني.

4- اللهف:

وهو الأسى على كل شيء يفوتك بعدما تشرف عليه،وبمعنى التحسر وخير التعبير عن هذا الباعث من الحس المأساوي، يحي بن هديل التجيبي الذي شكا الزمان فقال:

تحكَّم فينا الدهر والعقل الحاضرُ بكلِّ قياسٍ والأديب أريبُ

ولو مال بالجهَّالِ ميلته بنـــــــا لجاء بعدلٍ إنَّ ذا الغيبُ. [4]

[1]- رابح بن خوية ،جماليات القصيدة الإسلامية المعاصرة،الأردن، ط1، 2013،ص132.

[2]- المعتمد بن عبَّاد في سنواته الخيرة بالأسر، عبد الحميد حمروش،ص149.

[3]- سورة النساء، الآية :128.

[4]-محمد سعيد محمد، دراسات في الدب الأندلسي ، دار الكتب الوطنية،ليبيا،ط1، 2001،ص207.

5/ الموت

قد يكون الموت أهم باعث للمأساة، وهو أهم الحقائق التي غالبا ما يرفضها الإنسان، ويحاول نسيانها لأنَّ الموت يأتي دون استئذان، لا يقرع بابا ولا يمنعه حاجب، ولا يترك تاجا ولا ملكا، لأنه باعث للحزن باعث للحس المأساوي ، لذلك نجد الشعراء يذكرون الموت بمرارة حارقة سواء فقد عزيز أو أسرهم، ومعرفتهم أن الموت هو مصيرهم لا محال، خير ما نمثل به هو الشاعر والملك، المعتمد بن عبّاد الذي كتب على مأساته والموت، إذ رثى فيها أبنائه وزوجته، فجل قصائده كانت عناوينها جنائزية محزنة، فقال في إحدى قصائده:

إن كان قد أودى الزمان بمثله و لم يُبْقِ في عَودٍ لهُ طَمعُ بَعْدُ

فلا بُتِرَتْ بُثْرٌ ولا قُنيتْ قَنَا ولا رأرت أُسْدٌ ولا صهلت جُرُدُ[1]

قد نجد مدلول الموت عند الإنسان المسلم هي الانتقال من دار الفناء إلى دار الخلود، وهي بالتالي تحمل دلالة ايجابية، بينما الموت في معتقدات عدة هي الفناء والزوال ولانتهاء، وهذا خاصة عند الشعوب التي لا تؤمن بالبعث والحساب، فالموت لها، ليس منها مفر، وقد وقف الشاعر العربي القديم من الموت موقف الحائر بين الموت وحتميته يقول المتنبي:

ومن لم يَمُتْ بالسيفِ مات بغيرهِ تعددت الأسبابُ والموتُ واحدٌ

بذلك فالموت قدر محتوم وكأس لا بد لكل إنسان أن يتجرعها طال أمده أو قصر.

من هنا يتبين أن الموت أثر بالغ الأهمية وباعث أساسي في تجسيد المأساة الإنسانية.

6/ الجرح:

إن الجراح كثيرة ، وعندما نقول الجراح، لا نعني الجرح المادي الملموس، لأنه مهما طال سوف يزول ويندمل، لكن هنا نقصد به الجرح النفسي وخير ما يعبر به الشاعر عن مأساته هو جرحه الداخلي، والذي لا يشعر به أحد

[1]- ديوان المعتمد بن عبّاد، ملك اشبيلية ،ص109.

سواه، سواء أكان جرح من الحب ، أو جرح من القهر أو السلب أو جراح الأوطان التي اغتصبت وأخذة بالقوة، وخير ما نمثل به هو جراح يقول الشاعر الأندلسي الطّليق:

كأنَّ زماني فَوْقَ سَاقي قَايضٌ لَيْقْصِرَ باعِي عن عَلاكلَّ مطلبٍ [1]

7/ المأساة: عندما نقول المأساة فنحن بصدد جمع كل ما سبق ذكره التي تعد بينابيع تصب في بحر الحزن والأسى ،بكلمات أبدع الشعراء في التعبير عن حزنهم، والتي تجمع عدة مفردات تنفجر منها آلام وآهات أمثال: البكاء ،النَّحيب، الذعر ،الحسر،الكآبة....

بالتالي فإن مستويات المأساوية المتمثلة في هذه المفردات الحارقة تصب في بركانها الأكثر احتراقا لتزيد من حبر الشاعر حزنا يدعو للإبداع في الشعر.

8/الغربة: يعد الإحساس بالغربة باعثا من بواعث المأساة الإنسانية والغربة لغويا تعني العزلة والابتعاد والهجر والفراق.

«إن البعد عن الوطن أو النفي منه، يعتبر أهم باعث للحس المأساوي لأن الشاعر يعيش غربة، سواء كانت الغربة بعيدا عن الوطن أو في الوطن نفسه يكون مسجونا فيه»[2].

وخير من أبدع في هذا اللون الفني من الشعر: المعتمد بن عباد عندما أسر من طرف المرابطين وهو مأسور في أغمات يقول:

غريبٌ بأرضِ المغربين أسيرُ سيبكي عليه منبَرٌ وسريرُ

وتندبه البيضُ الصَّوارمُ والقنا ينهل دمعٌ بينهن غزيرُ [3]

[1]- محمد سعيد محمد،دراسات في الأدب الأندلسي، ص199.

[2]- فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، مطبعة النجاح الجديدة ،دار البيضاء ،ط1، 1993، ص45.

[3]- المعتمد بن عباد، ص171.

وإذا نظرنا في الغربة سنجد فيها نوعين الغربة الجسدية والغربة الروحية ، فالغربة الجسدية كالابتعاد عن الأوطان وتكون بالانتقال من مكان لآخر عبر مناطق العالم، أما الغربة الروحية هي أن يكون الإنسان غريبا بين أهله وذوية داخل وطنه ،حيث يشعر أنه متميز وغريب بأفكاره وأحاسيسه عن الآخرين.

9/ الأسف:

يعرفه الأدباء أنه الحزن الشديد، الألم والندم، هو المبالغة في الحزن والغضب، كما ورد في قوله عزَّ وجلَّ

« وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا ﴿١٥٠﴾ »[1].

ويعبر عن هذا المعنى عدة شعراء لما أصابهم من الدهر ما لم يستطيعوا تجاوزه، والندم على ما فاتهم والتحسر عليه من أمثال هؤلاء نجد المعتمد بن عباد حين قال:

قَبَّحَ الدَّهرُ فَمَاذَا صَنَعَا؟ كُلَّمَا أَعْطَى نفيسًا نَزَعَا

قَدْ هَوَى ظُلْمًا بِمَنْ عَادَاتِهِ أَنْ يُنَادِي مَنْ يَهْوَى"لَعَا" [2]

10/ الفقر:

لقد تفشى الفقر في الأندلس في بعض الفترات وكان الشعراء من ضحاياه، فقد اكتوى بعضهم بناره وعبروا عن ضائقتهم هذه شعرا، أمثال ابن دراج ذكر فقال:

لكَ الخيرُ قَدْ أَوْفَى بِعَهْدِكِ خَيْرَانُ وبُشراكُ قد آواك عِزٌّ وسلطانُ [3]

[1]- سورة الأعراف، الآية :150.

[2]-محمد سعيد ،دراسات في الأدب الأندلسي،ص206.

[3]- المرجع نفسه،ص175.

ثالثا: الحس المأساوي في الشعر العربي:

1- العصر الجاهلي:

إن الفراغ والفراق وعدم الاستقرار، والرحيل، والتنقل واتساع الصحراء غير المحدودة والظلمة الموحشة والخوف والموت، قد أعطى للشاعر الجاهلي مساحة واسعة للإبداع في المأساة أو الحس المأساوي في نصوصه[1]،لأنه لا يمكن أن نقرأ الشعر الجاهلي ما لم تكن مطلعين على خليفة الشاعر النفسية والبواعث التي جعلته ينظم في هذا اللون، وأنظمة القبائل وقتها كان لها حضور واسع فيما يسمى "بالعنف" المأساوي في الشعر الجاهلي.

وغالبا من يقرأ الشاعر الجاهلي يحد أو يحس بنبرة حزن وهذا ما غلب على النصوص الشعراء الجاهلين، يرافق تلك النبرة شعور بسواء بالوحدة أو الألم والفراق...

وحتى في استعراض بعض مطالع النصوص الشعرية في العصر الجاهلي نجد المأساة أو الحس المأساوي هو أبرز ما يواجهنا فيها، فامْرُؤُ القيس خير من دعم إلى تعميم الشعور بالمأساة لعلها السبيل في تخفيف عنه ألم وحزنه، تلك كان مطلع معلقته:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوَمَلِ[2]

فنلاحظ هنا أن الشاعر يركز وبشكل واضح على التفاصيل الجزئية كالمكان مثلا رابطة بغياب الأحبَّة الذين تركوا فراغًا رهيبًا في نفسية الشاع، الذين كانوا يعمرون عليه المكان واليوم لا أحد فيها[3].

[1]- أبو عبد الله خلف العساف، الصورة الفنية لحقول التراجيدي في الشعر الجاهلي مجلة جامعة أم القرى اللغة العربية ، وآدابها، مكة، السعودية، العدد21، ص2،3.

[2]- أبو عبد الله الحسن بن الحسين الزوزني، شرح المعلقات العشر ،منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983-ص29.

[3]- عبد الله خلف العساف، الصورة النفسية لحقول التراجيدي، ص3-4.

وقول عبيد بن البرص:

أمن رسوم نأبها ناحِلِ ومن ديارٍ دمعُكَ الهامل [1]

فالشاعر يشتكي يتساءل عن البكاء الذي صارت تتحكم فيه هذه الديار المقفرة، فكلما وقف أمامها إلا واستجابت دموعه لهذه الأطلال الفارغة، مما ولَّد حالة من التعجب لدى الشاعر الذي لم يجد تفسيرا لهذا الحزن وهذا الحس المأساوي المتواصل.

وإذا قلنا الحس المأساوي في العصر الجاهلي، فنحن بصدد الحديث عن الشعراء الصعاليك، الذين أبدعوا في قول الشعر الذي جلّه الحديث عن المأساة والظلم والحزن و التهميش لقوله في أوطانهم الغربة التي عاشوها وهم في بلدهم وبالتالي فالشاعر الجاهلي قد أعطى مساحة واسعة للحس المأساوي في نصوصه، حتى أنه قد غلب على أشعارهم، وإذا تحدثنا عن الحس المأساوي في النص الجاهلي فخير ما نمثل به من ذاك العصر هو شعر الصعاليك لأنهم أبدعوا في تصوير مأساتهم، وأيضا لأنهم عبروا عن حسهم بصورة وتعبير صادق نابع عن تجربة معاشة، فما معروف عنهم أنهم عاشوا كل بواعث الحس المأساوي من الفقر وظلم وتهميش...إلخ، يقول عروة بن الورد في سبيل سد الجوع ومحاربة الفقر، يندفع إلى مواجهة المخاطر والشدائد غير آبه، يقول:

ومن يكُ مثلي ذا عيالٍ ومقتراً من المال يطرح نفسه كل مطرح [2]

ومن خلال ما عاشه الشاعر الصعلوك في الجاهلية داخل المجتمع من الظلم، يبدء برفض ما أقره مجتمعه ويثور عليه ويبحث عن تشكيل جديد يتناسب ورؤيته يقول الشنفرى:

أقيموا بني أمي صدور مطيكُم فإني إلى قوم سواكم لأميل

فقد حُمَّت الحاجات والليل مقمِرٌ وشدَّت لطيات مطايا وأرحل

وفي الأرض مناي للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القِلى متعزَّلُ [3]

ويقول السليك ابن السلكة مصور مأساته مع الجوع والفقر:

---

[1]- عبيد بن البرص، الديوان: تح كرم البشاني، دار صادر،بيروت،ص38.

[2]- حسن جعفر نو الدين، موسوعة الشعراء الصعاليك، ج1، شادبوسي ،طبع في لبنان ،دط، ص169.

[3]-المرجع نفسه،ص170.

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني وإذا قمت تغشا في ظلالٌ فاسدُفُ[1]

و لأن العصر الجاهلي قد همّش الفقير، ويردن بأنه أقل شأن ومكانه، والغني له المكانة كبيرة، وعالية مع مجتمعه حتى وإن كان خصاله ذميمة، المهم غنى، وبالتالي فالجاهلي الفقير هنا بعيش حتى مأساوي كبير، وفي هذا الصدد يقول عروة بن الورد:

وعيني للعنى وأسعى فإنّي رأيتُ النّاسَ شرُّهُم الفقير.

وأبعدهم وأهونهم عليهم وإن أمسى له حسَبٌ خيُر[2].

ومن هنا يتضح أن المجتمع الجاهلي خالي من القيم الفاضلة، صحيح أن كانت لهم أخلاق فاضلة كالكرم والصدق....، لكنه من هذا الجانب فقد اختفت أخلاقهم واندثرت، وبالتالي نجد الشاعر الجاهلي يكتب مأساته ويصور أوجاعه يقول عروة بن ورد:

المال فيه مهابه وتجلّستهُ والفقر فيه مذلة وفضوحُ[3].

ومنه نستطيع القول أن الشعر الجاهلي أو الحس المأساوي في الأدب الجاهلي لم يكن وليد الظروف حياة شاعرة فحسب، إنما كانت سمة العصر، وتعبيرا عمَّا كان يعانيه الإنسان، من تمزق وتألم «فكان الشعر بذلك كشفا عن فواجع الحياة، وتعبيرا عما يقاسيه الوجدان من بؤس وقهر وحرمان، لذلك تحولت نغمات الشعر إلى الحان جنائزية مفعمة بالألم والحسرة واليأس»[4].

[1]-حسني عبد الجليل يوسف ، الأدب الجاهلي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط2، 2003، ص165.

[2]- غازي ظليمات، الأدب الجاهلي: قضايا فنون، نصوص، دار الفكر، دمشق، الطبعة العالمية، ط1، 2002، ص177.

[3]-المرجع نفسه، ص177.

[4]- حمة دحماني ،ظاهرة المأساة في الشعر العربي، مجلة الأدب، جامعة منتوري، قسنطينة ، الجزائر ، العدد 10،2009،ص16-17.

2- في العصر الإسلامي

لقد شهد العصر الإسلامي أزمته ومأساته ،وإذ تحدثنا عن الحس المأساوي في العصر الإسلامي فنحن بصدد الحديث عن التصوف، لأنه شهد كل أنواع وأشكال التنكيل والتعذيب التي قاساها مجموعة من الأدباء والشعراء، أمثال: ذو النون المصري، سهيل التشتيري، النوري وغيرهم الذين مثلوا الحس المأساوي في هذا العصر، ولقوا مصير مأساوي، ويبقى اسم الحلاج علما بارزا، ورمزا قويا للحس المأساوي وتضل آلامه إحدى التجارب المأساوية، الأكثر عمقا، وتجدرا في الفكر العربي الإسلامي على الإطلاق.

وكتوضيح «لم يستطع التصوف أن ينتج رؤيا مأساوية حقيقية ومستمرة، فليس كل استشهاد مأسويا، وليس كل فاجعة بالضرورة مأساة».[1]

ففي حالة التصوف فقد كانت العناية الإلهية والرجاء والاطمئنان واليقين وغيرها من أحوال الصوفية، تقف مانعا من قيام الحس المأساوي.

وخير ما نمثل به من الحس المأساوي في العصر الإسلامي أشعار الحلاج له قصيدة بعنوان: **أقتلوني يا ثقاتي** يقول:

اقتلوني ياثِقَاتي

انَّ في قَتْلي حَياتي

وَمَماتي في حَياتي

وَحَياتي في مَماتي

أَنَا عِنْدِي مَحْوُ ذَاتي

مِنْ أَجَلِّ الْمَكْرَمَاتِ

[1]- عبد الواحد ياسر :المأساة والرؤيا المأساوية في المسرح العربي الحديث، دار الأمان، الرباط،المغرب، ط1، 2013، ص42، 43.

وبقائي في صِفَاتي

من قبيح السَّيِّئاتِ

سئمتْ رُوحِي حياتي

في الرسوم الباليات

3-الحس المأساوي في الشعر الأندلسي:

يتميز الشعر الأندلسي بمجموعة من القيم، تبرز الجميل والقبيح والمأساوي، وعبّر عن هذه القيم من خلال نظام جمالي مميز انسجم وطبيعة تلك القيم، والحس المأساوي يشمل بتجسيد الموت أو البعد، وما تبرزه من مآس وحزن وألم عند وقوع الحالة فيجسّد الشعراء مشاعرهم وأحاسيسهم بالرثاء وذكرى الفقيد ويكثرون من الشكوى وما يرافقها من حنين ودموع .

وبتنوع مواقف الحزن يبرز الحب نوع من المأساة فيجسّدها الشاعر بالعبارات ذات الألفاظ المعبرة عن المشاعر فهي تظهر في ألم الغربة، كما ظهر في الشعر الأندلسي بقوة في بكاء المدن كحالة جديدة في أغراض الشعر، كما يبرز الحس المأساوي أيضا من خلال عمق الحب والشوق والتلهف في كل المواقف، وقد احتلت صور الحزن بأشكاله مساحات واسعة في الشعر الأندلسي لما حل بتلك البلاد من أحداث جسام بعدما كانت مركز إشعاع وسط الجزيرة، وما كانت تعنيه تلك الحياة بنفوسهم وقد عظم الأمر بعد حصول النكبة وضياع الوطن.

والشاعر الأندلسي إنسان مرهف الحس يعيش واقعه ويتأثر به فيأتي تأثيره لواعج نفسية بعبارات موسيقية تشحن بخلجات وجدانه، واهتزازات عواطفه وانفعالات ذاته وينثر ما تكنه أعماقه ما حملته الأيام من تجارب خلال مسيرته الطويلة مع الزمن والحياة، والمجتمع، وما تحمله من أفراح وأحزان من غبطة وألم، من غنى وفقر على شكل صورة حية للمأساة، وتبرز لغة الحب في تعبيره عند سماع المتلقي تلك الأشعار سواء أكانت تمثل ذاته أو تعبر عن حالة عامة لها المساس في حياته، كما نرى ذلك في فن الرثاء ورثاء المدن عند الشعراء الأندلس.

ويتمثل الرثاء في المأساة بأنه حالة حب وشوق وتخلصها من الكلمات والعبارات، وشعر الرثاء إنما يقال عن الوفاء فيقضي الشاعر بقوله حقوقا ما سبقت أو علم السجية إذا كان الشاعر قد فجع بإنسان عزيز عليه، أو قريب منه فنراه يحمل الكلمات أحزانه ولوعته وما تكنه نفسه من أسا لما لسطوة الموت من قوة لا يمتلك القدرة على ردها أو الخلاص منها كما قال الشاعر "ابن عبدون " :

كَما مْنكَ يا موتُ لا واق ولا غادي الحكم حكمك في القاري و البادي[1]

وهنا نلمس في قول الشاعر أن الموت كان له كالقيد لا يمكن قبوله ولا يمكن الخلاص منه. القدرة التي رسمها الشاعر جسدت لنا مقدرة الإنسان تجاه القدر أو فعل الزمن، فهو يقصر في أمآنية ويحد من حركته، فنلاحظ أن الكلمات تلاقت مع الفكرة فأوحت للمتلقي بقبول الشاعر للحالة مع رغم صعوبتها إنها مأساوية، ويكون ذكر المحاسن في الرثاء تخفيفا لوقع الحادثة .

كما يقول عالم شاعر يرثى الفقيه أبا مروان بن سراج الأندلسي بقوله:

أودى سراج المجد وابن سراجه فلنور شَمْسِ المكرمات أفولُ

لْو كان علم الدين يبكي ميتا لبكى الحديث عليه والتنزيل

كم من حديث للنبي ابانه فبدت له عزر نرز ومجول

كم مصعب في النحورا من جماعة حتى غدا والصعب منه ذلول. [2]

يركز الشاعر هنا بوضوح على التفاصيل الجزئية من كلامه ليبعث فكرته من خلال ذكر محاسن الميت، ويسلط الضوء على أثر فقدانه في العلوم حين وصفه وعرفه بسراج أطفئ بعد موته وهنا نلاحظ أن الشاعر ركز في رثاء الميت على المحاسن لكنه حمَّل الكلمات أثر الألم. وبان تأثيره بعد الفقيه لأنه عالم من أعلام العلم والأدب ولكن العاطفة تبرز في شعر الشاعر عندما يكون المصاب ذا تأثير في نفسه نلاحظ ذلك في شعر "المعتمد بن عباد

[1]- عبد العزيز عتيق. الأدب العربي الأندلسي ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت1975،ص199.

[2]- المرجع نفسه، ص199.

وهو يرثي ولديه قتلا غيلة على أيدي يوسف بن تاشفين وكان ابن عباد سجينا في سجن أغمات لم يستطع الذود على ولديه وكانت صورة الحزن في أبياته قوية حتى أنه يجيب من يدعوه إلى الصبر بقوله:

يقولون صبرًا لا سبيل إلى الصبر سأبكي وبكى ما تطاول من عمري

هوى الكوكبان: الفتح ثم شقيقه يزيد فهل بعد الكوكبان من صبر

توليتما والسن بعد صغيرة ولم تلبث الأيام صغرت قدري[1]

ونلمس في هذه الأبيات الحزن العاطفي المكنون في نفس الشاعر وآثاره التي تلون ألفاظ القصيدة لتجعلها مشحونة بالدلالات العاطفية على الرغم من بساطة الألفاظ وملائمتها مع الفكرة فتأكيد الشاعر على البكاء ورفضه الصبر دلالة على حبه لولديه ودلالة على عظم مصابه كما أن مرتكز هذا القول وعماده هو بيان اختزان النص لمشاعر الشاعر الحارة والصادقة والإفصاح عنها كما يبدو على تفسير الحب، الذي أظهرته العاطفة الجياشة في سياق النص(القصيدة) ذلك أن المسار الذي اتبعه الشاعر الأندلسي لتعبير عن الحس المأساوي، وتشكيله في موقف الرثاء، وما يعمق هذا الشعور المأساوي أكثر هو الإحساس الشديد بألم الفراق والبعد والعجز عن تحمل المصاعب ويعد "ابن حمديس"الصقلي من أكثر شعراء الأندلس قولا في الرثاء، فإلى جانب ما نراه في ديوانه المراثي الرسمية في من كان له بهم اتصال من الأمراء والأشراف وقادة الجيوش والرثاء عند"ابن حمديس" ينحو منحى ذكر المحاسن والثناء على الميت بينما حملت قصائده التي رثا بها أباه وزوجته وابنته وعمته وجارية له، نوعا آخر من الرثاء حيث تميزت هذه المراثي بجودة الصياغة وصدق العاطفة وقوة حرارتها كما جاء في رثاءه لوالده قوله:

يد الدهر جارحة اسية ودنياك مفنية فانية

رأيت الحمام بيد الأنام ولذعته مالها راقية.[2]

[1]- ديوان المعتمد بن عباد وحققه أحمد ،أحمد بدوي وحامد عبد المجيد،ص105.

[2]- ديوان ابن حمديس الصقلي، إحسان عباس، دار الصادر، بيروت،197،ص203.

مما يزيد الأمر بؤسا ويحمل الشاعر أكثر شقاء عندما يفقد إنسانا عزيزا عليه، كما جاء في شعر"ابن حمديس في قصيدته التي رثى بها زوجته على لسان ولده عمر فجاءت هذه المرثية عالية في دقة الوصف لضربة الدهر حيث جسد الموت بصفة الإنسان المقاتل ورمية قوسه تصيب وتعمي وأن الموت حتما آت ومن هذه القسوة في الطعن قوله:

أي خطب عن قوسه الموت يرمي وسهام نصيب منه تعمـــي

بسرع الحي في الحياة ببـــــره ثم يقضي إلى الممات بسقم"[1].

نلاحظ في سياق الكلام اختيار الألفاظ القوية النافذة إلى القلب، لا نستطيع استبدالها، دون أن تفسد الشعر وتذهب بقوته. وكانت لهذه الألفاظ دلالة على رسم الصور الفنية المعبرة على الذكر والتي أراد الشاعر الأندلسي من خلالها أن يجسد قوة الأسى والألم والفجيعة، ووحشة البعد عن الحبيبة فجاءت لغة الحب صادقة نقية تحملها الألفاظ وتتجانس معها .

شعر الرثاء يمس نفوسنا عندما نستمع إلى أية قصيدة في الرثاء الصادق، ومدى قدرته على نقل الصور إلى نفس المتلقي فهو لا يحرك النفس إلا بقدر ما فيها من تفاصيل حقيقة على استحضار صورة المرثي أمام خيال المتلقي، وتنطق هذه الأشعار بصدق العاطفة ويكسوها لون كئيب وظلّ حزين يوشحه التشاؤم والألم ويكسوه الأسى والشجن.

للرثاء موقع واسع في الشعر الأندلسي أجاد فيه الشعراء وأكثروا في تصوير المآسي والآلام وشدة الشوق رسمت في صورة فنية تشخيصية، وقد توسع الرثاء فشمل أغراضا جديدة، أهمها رثاء المدن والمماليك، وهو فن جديد ظهر في الشعر الأندلسي، عندما تعرضت الأندلس إلى هجوم الأعداء الذين استولوا على مدنهم وتمكن الأعداء النصارى من طرد المسلمين وأخرجوهم مشردين في المماليك، وما يميز شعر رثاء المدن انه يحمل صفات المدن

[1]- إحسان عباس، ديوان ابن حميدي الصقلي ،ص203.

وعظم قدرها والحب والشوق إليها ويعبر هذا الرثاء عن حالة الألم لما يحمله من صعوبة الموقف فهم يرون ملكهم الذي أقامه الآباء والأجداد حصنا للإسلام ومجدا للعروبة تتداعى أركانه أمام أعينهم فيستولي عليهم الذهول ثم لا يملكون إلا أن يرثوه وينفجعوا عليه بشعر يقطر أسا ودموعا حارة، ويحمل تشخيص حالة الضعف والهون لدى ملوك وأمراء الأندلس، وهزلهم وإغفالهم الخطأ المحيط بهم، وهم يرون ديارهم تحتل منهم مدينة تلو مدينة.

وارتباط الإنسان بأرضه ليس ارتباطا هشا بل هو الميلاد والذكرى وملاعب الصبا، ومما قيل من قبل شعراء الأندلس في رثاء المدن ما قاله الشاعر "أبي البقاء الرندي" في نكبة الأندلس:

وصار ما كان من ملك ومن ملك كما حكى عن خيال طيف وسنان

وللحوادثِ سلطانٌ يسهلها وما لما بالإسلام سلوان[1].

ونلمس في هذه الأبيات صدق مشاعر الشاعر من خلال الصورة التي رسمها محملة بالألم والحسرة حتى وصلت به الحالة أن يتصور ما عاشه في أرضه كان (كخيال طيف وسنان).

وقد قال شعراء الأندلس وأكثروا القول في رثاء مدنهم ودولتهم حتى صار رثاء المدن والمماليك بسبب ذلك فنًّا شعريًا من فنون الأدب الأندلسي، وقد رثى بعض شعراء الأندلس المدن وحملت كلماتهم الحب والشوق وجسدوا عمق المأساة كما جاء في رثاء مدينة "طليطلة":

طليطلة أباح الكفر منها حماها وإن ذا نبأ كبير

فليس مثلها ايوان كسرى ولا منها الخورنق والسدير

أنترك دورنا ونفر عنها وليس لنا وراء البحر دور[2].

ونلمس في عبارات "ابن خفاجة" الأندلسي وهو يبكي بلوعة سقوط "بلنية" بيد الأعداء سنة 488 هجري بعد حصار دام عشرين شهرا.

[1]- عبد العزيز عتيق، الأدب العربي الأندلس، ص128.

[2]- ابن منظور، لسان العرب،1955، مادة غرب حنين.

عاثت بساحتك العدا يادار ومحا محاسنك البلى والنار

فإذا تردي في جنانك ناظر طال اعتبار فيك واسصتبار[1]

ومن المرثية الشاكية الباكية، وهي بذاتها تغنى عن كل شرح وتعليق، قال فيها أبو البقاء الرندي:

لكل شيء إذا ما تمَّ نقصانُ فلا يغر بطيب العيش إنسانُ

هي الأمور كما شاهدتها الدول من سره زمن ساءته أزْمانُ

وهذهِ الدَّارُ لا تبقى على أحدٍ ولا يُدومُ على حال لها شَانُ

وصَار ما كانَ مِنَ كلل ومن ملل وللزَّمَانِ من خيال الطيف وسِنَانُ

مَجَامِعُ الدَّهر أنواعٌ مُنوعِةٌ وللزمان مسرّات وأحزانُ[2]

هنا اختار الشاعر ألفاظا لينة جميلة مؤثرة حملها ألمه وحسرته بأسلوب الحكمة وللتعريف بتغلب الزمن وجاء وصفه وعرفة بقوله(هذه الدار لا تبقى على أحد ولا تدوم على حال لها شان) استطاع أن يبرز قوة الدنيا وأنها تملك سطوة لا تبقى على أحد من حاله المسرة.

قد ترددت مراثي شعراء الأندلس بكثير من القصائد والمقطوعات بذكر الأهل والأحبة ومراثي الشعراء لزوجاتهم، ويأتي رثاء النفس والذي أكثر الشعراء من إعداد قصائد قبل رحيلهم فيها تأمل واعتبار ومواعظ ووصايا منها رثاء "المعتمد بن عبّاد" لنفسه بقوله:

قَبْرَ الغَرِيبِ سَقَاكَ الرَائِحُ العَادِي حَقًّا ظَفَرْتَ بأَشْلاء ابن عبَّاد

بالحِلم بالعلَمِ بالنُعمى إذا اتصلت بِالخصب إن جبدوا بالري للصادِي

بالطاعن الضارب الرامي إذا اقتتلوا بلموت أحمر بالضرغَامة العادِي

[1]– عبد العزيز عتيق، الأدب العربي الأندلس،ص322.

[2]–ديوان بن خفاجة، تحقيق السيد مصطفى غازي ط،الإسكندرية ،ص238.

بالدهر في نقم بالبحر في نعمٍ بالبدر في ظلم بالصدرِ في النادِي[1].

وقال أيضا "ابن غزال"حين امتد به العمر في أبيات مشبعة بالحكمة والواقعية أظهرت إحساسه بوطأة الزمن وثقل الشيخوخة حيث قال:

لو كان للأسماء يدخلها البلى لقد بلى أسى لأمتداد زماني

مالي لا ابلى لتسعين حجة وسبع أتت من بعدها سنتان

إذ عنّ لي شخص تخيل دونه شبيه ضباب آو شبيه دخان[2]

وقال في رثاء نفسه أيضًا:

أصبحت والله محسودًا على أملٍ من الحياة قصير غير ممتد

حتى بقيت بحمد الله في خلف كافي بينهم من حشية وحدي[3]

من خلال هذه النماذج التي عرجنا عليها في شعر الرثاء ورثاء المدن والمماليك تبين لنا أنها بنيت أساسا على الحس المأساوي أي لتجسد عن طريق الشعر الشعور المتضخم بالمأساة وقد بني المأساوي منها على موت الجميل أو فقده أو فقد المكان وحتى الذكريات في الديار ضاعت والأحبة رحلوا والزمان لن يعود مرة أخرى، هذا هو المركز الأساسي للمأساوي في السياقات ويمكن تعميمه على شعر الرثاء ورثاء المدن في الشعر الأندلسي .

نستخلص مما سبق أن الحس المأساوي في موقف الرثاء بصفة قيمة جمالية وشكلا فنيا يعكس العلاقة بين الإنسان والأرض ويظهر مدى الحب والشوق إليها عند البعاد عنها وخاصة إذا كان ذلك قسرا، كما عاشه الشعراء الأندلس نقلوه في أشعارهم.

[1]- ديوان المعتمد بن عباد، جمعة وحققه أحمد البدوي وحامد عبد المجيد، ص96.

[2]- عبد العزيز عتيق،الأدب العربي الأندلسي ،ص71.

[3]- المرجع نفسه، ص484.

إضافة إلى الرثاء ورثاء المدن والمماليك، فإن لموضوع الغربة جذور عميقة وموغلة عند الشعراء الأندلسيين في التعبير عن مأساتهم ونكبتهم ويعتبر موضوع الغربة متمما لموضوع رثاء المدن في رسم صورة المأساة التي جسدها الشاعر الأندلسي، ولشعراء الأندلس أشعارا كثيرة، في الحنين إلى الأوطان والأهل، وإذا كان المشارقة لهم الفضل في السبق إليه، فإن الأندلسيين قد لحقوا بهم وتقدموا عليهم في هذا المعنى وفاقوهم فيه كمًا وكيفًا، ويرجع الباحثون ذلك إلى تميز شعر الأندلسيون لما يحمله من معاناة شعرائه في موقف الغربة والحنين، وأنهم معها في تكوين الأسس الجمالية للحس المأساوي، وجاءت تلك الصور بنقل صادق ومميز لا يقل قوة على شعر المشرق، في وصف ألمهم وحسرتهم وحنينهم إلى أوطانهم بعد الفجيعة التي حلت بهم باحتلال الأندلس ومن نماذجه نجد قول"ابن زمرك في حنينه إلى غرناطة ووصف مواطن جمالها:

نسيم غرناطة عليل لكنه يبري العليل

وروضها زهره بليل ورشفة ينقع الخليل[1]."

كما أن قيمة المأساوي في موقف الرحلة أو في الغربة عن الأوطان تشكل دائما مرورا تفيض بالحركة والحياة الأخرى تحمل صفة البؤس والشقاء ويعود بنا عبد الرحمان الداخل في رسالة يبعث بها إلى أرضه يقول:

أيها الراكب الميمم ارض اقر من بعضي السلام لبعض

أن جسمي كما علمت بأرض وفؤادي ومالكيه بأرض

قدر البين بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غمضي[2].

تدور الأبيات حول الحنين إلى الوطن ويبرز طابع الحزن (البين الفراق، الفؤاد)، كما برع في تصويره لمعاناة الغربة بأن جعل من نفسه شطرين، الجسد في المغرب والفؤاد في المشرق مما منح الفكرة دفئًا شعوريًا وقدرة على الوصول إلى المتلقي.

[1]- عبد العزيز عتيق-الأدب العربي الأندلس،ص71.

[2]- المرجع نفسه، ص72.

ليس كالاغتراب شيء يزيد من حنين الإنسان إلى وطنه وتعلقه به وهذا ما حدث لهؤلاء الأندلسيين سواء أكان اغترابهم الإنتقال من الغرب إلى الشرق، أم الانتقال لسبب آخر من مدينة إلى أخرى بالأندلس.

كلما اشتدت عليهم وطأة الاغتراب، ونالت من نفوسهم، فزع الشعراء منهم إلى الشعر يبثونه توقهم وحنينهم المشوب إلى أوطانهم و أهلهم وأحبائهم فنلاحظ أن حنين الشاعر يتحول إلى شكوى من الغربة أو الدهر، الذي ورث ألم الفراق وحرقته والبعد عن الأهل والوطن فهو لا يبعد عن واقعه بفرحه وحزنه .

من خلال ما سبق نستطيع القول أن الحس المأساوي يشكل لوحة فنية في شعر الغربة والحنين والرثاء وأعطى مثالا جماليا مؤثرا لدى المتلقي.

لابد من القول في ختام كلامنا عن الحس المأساوي في الشعر الأندلسي، أن جميع الألفاظ التي وردت في النصوص وتجانست مع الفكرة ساهمت في رسم لوحة تشكيلية، للمأساة والألم في الشعر الأندلسي المأساوي.

الفصل الثاني

تجليات الحس المأساوي في شعر المعتمد بن عبّاد

تنافس ملوك الطوائف في الأندلس في المكارم والمفاخر، وفي تشييد الأبنية، وفي الاعتزاز بالعلماء والأدباء «والشعراء الذين ينعمون في ظلالها ويتنافسون في تخليد مآثرها وتسيير ذكرها في كتب التاريخ والعلم والأدب..».[1] وبنو عباد كانوا أكثر ملوك الطوائف حظا من القوة وسعة السلطان وبعد الصيت، وأوفرهم نصيبا في وفود الأدباء والشعراء والعلماء إليهم...، وبنو عباد عرب من لخم ورثوا السيادة والعزة وورثوا حب الأدب، لاسيما نظم الشعر والإعجاب به والمشاركة فيه والإثابة عليه.

«ولا يخفى لنا أن المعتمد وفق أيام مجده وصعوده إلى درجة من التجويد مكنت له من أن يصل بشعره إلى ذروة وبوابة التفوق إذ كتب في مختلف الأغراض من غزل، ووصف ومدح، ورثاء...».[2]

«إلا أن حياة المعتمد بن عباد من بدايتها حتى نهايتها مسلسلا دراميا محزنا كان حظه من أصدقائه الخديعة والغدر والمكر، وكانت حياته في قصر أبيه محاطة بالدعر والإرهاب والخوف والعذاب، لم يكن هادئ السرب ولا مطمئن القلب، ولا دائم الغلب..»[3]

إلا أنه كان شاعرا أديبا ذواقا للأدب «وقد غلب الحس المأساوي على شعره، فرغم الغدر الذي لقيه من أصدقائه وأقربائه، مع هذا كان قريبا من العفو، ومع هذا ألوت به الأيام ونالت منه المحن، وفتكت به تقلبات الزمن و طوحت به الأحداث، فأنزلته عن عرشه، ونالت من عظمته وكبريائه، ومرغت بالوحل أردانه».

وكما تطرقنا إلى الحس المأساوي من خلال ظهور المصطلح إلى تطوره عبر مختلف المراحل وتباين مفهومها عند الأمم والشعوب، والملاحظ أن الشروح اللغوية قربت بين المعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة الحس المأساوي، وساعدتنا على الكشف عن معناها والذي يصب في الشدة على الناس وعسر الظروف التي تمر عليهم وعلى جميع

[1] المعتمد بن العباد، الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزا، عبد الوهاب عزام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ت2012، ص 21.
[2] المرجع نفسه، ص 22.
[3] قيصر مصطفى، المعتمد بن عباد، ص 190-191.

الميادين التي تخص حياتهم وتمس معيشتهم، ويظهر لنا أن الحس المأساوي ما هو إلا تجسيدا للألم والمعاناة مهما اختلفت صورها وتباينت معالمها.

أولا: الصور المأساوية في شعر المعتمد بن عباد

لقد جاء ديوان المعتمد بن عباد حافلا بالصور المأساوية التي بدورها عكست الحالة الشعورية لديه، وفي هذا الصدد ارتأينا أن نذكر بعض هذه الصور على سبيل الذكر لا الحصر ومن هذه الصور نذكر:

أ- صورة الحزن:

قبل أن نتطرق إلى صورة الحزن في ديوان المعتمد بن عباد، لابد لنا أن نعطي مفهوما للحزن.

لغة: حزن والحزن خلاف السرور، وحزن الرجل بالكسر فهو حزن وحزين وأحزنه غيره وحزنه أيضا.[1]

أما الحزن اصطلاحا: هو أحد صور العاطفة والمشاعر الإنسانية وهو ضد الفرح والسرور، فالحزن والفرح موجودان في الإنسان وهما فطريان.[2]

وبالتالي فقد أوقعته فريسة بين أظافر وحش لا يرحم وعدو لا يهزم «ولقد بقي آسفا تتصعد زفراته وتطرد طردا المدانب عبراته لا يخلو بمؤانس ولا يرى غريبا بدلاً من تلك المكانس، ولم يجد سلوا ولم يؤمل نواء ولم يرى وجها سره مجلو».[3]

ويضيف صاحب القلائد قائلا: «وأضحت منازله قد بان عنها الأنس والحبور، وألوت بهجتها الصبا والدبور، فبكت ا لعيون عليه دما، وعاد موجود الحياة عدما، وصار إصرارا لدهر فيه خدما، فسحقا لدنيا ما رعت حقوقه، ولا أبقت شروقه».[4]

[1] أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، تاج اللغة وصحاح العربية، تح: محمد ثامر، جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2009، ص 246.
[2] عبد الله الخاطر، الحزن والاكتئاب على ضوء الكتاب والسنة، المنتدى الإسلامي للطباعة والنشر، جامعة الرياض، السعودية، 1412هـ، ص 17.
[3] قصير مصطفى، المعتمد بن عباد، دراسة تاريخية سياسية أدبية، قراءة معاصرة مقارنة، ص 291.
[4] المرجع نفسه، ص 292.

ولما حل بالمعتمد ما حل وركبه القهر والذل، ونزل به الهوان، وفقد العز والسلطان، شعر بواقعه فتنفس الصعداء وتأوه وتلوع وتوجع، وانهمرت الدموع من عينه وترددت أنفاسه المحترقة في الضلوع وخير ما نمثل به قوله:

لمّا تَماسَكتِ الدُموعُ وَتنبّهَ القَلبُ الصَديعُ

وَتَناكَرت هِممي لَما يَستامها الخَطبُ الفَظيعُ

وَأَلَذُّ مِن طَعم الخُضوعِ عَلى فَمي السَمُّ النَقيعُ

ومنه فحياة المعتمد كانت سلسلة من المآسي، ومن المفاجآت والنكبات والانتصارات كذلك، حتى وقع أخيرا في الأفخاخ التي نصبت له، وأنهت به في أغمات مأسورا.

«ومأساة المعتمد حملت في طياتها الكثير من الحزن والشجن، والكثير من الأخبار والنوادر، وكانت أقرب ما تكون إلى الخيال منها إلى الواقع».[1]

ولقد حفل ديوان المعتمد بن عباد بالعديد من صور الحزن التي تدل على نفسيته، ولقد جاء في ديوانه عندما سمع بخبر وفاة ابنه يقول:

فمالَيَ لا أَبكي أَمِ القَلبُ صَخرَةٌ؟ وَكَم صَخرَةٍ في الأَرضِ يَجري بِها نَهرُ؟

بُنَيٌّ صَغيرٌ أَو خَليلٌ مُوافِقٌ يُرَنّقُ ذا قَفرٌ وَيُغرِقُ ذا بَحرُ

وقال عندما وصل العيد وهو في "أغمات" مأسورا قال بحزن:

فيما مَضى كُنتَ بِالأَعيادِ مَسرورا فَساءَكَ العيدُ في أَغماتَ مَأسورا[2]

ب- صورة البعد والمنفى:

إن البعد والنفي والغربة في الديوان جاءت كتعبير واضح عن حسرة ومأساة الشاعر على ما ألمّ به وبعائلته من تشرد وتغريب، وهنا يكون للغربة تأثير واضح في نفسية المعتمد، فالمرء ما إن يبتعد عن وطنه يشعر بقيمته وبأنه

[1] المرجع نفسه، ص 342.

[2] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 165.

الأفضل رغم النقائص، وهذا ما يسمى بعنصر الانتماء، والشيء نفسه حدث مع المعتمد الذي جبر على مغادرة وطنه، يقول والدمع يجري في عينيه اللتين جفتا من الدمع:

أَما لانسكابِ الدَمعِ في الخَدِّ راحَةٌ؟ لَقَد آنَ أَن يَفنى وَيَفنى بِهِ الخَدُّ

هَبوا دَعوَةً يا آلَ فاسٍ لِمُبتَلٍ بِما مِنهُ قَد عافاكُمُ الصَمَدُ الفَردُ[1]

وقال مخاطبا من حصلوا على الحرية وتخلصوا من الكبل وسجن أغمات:

تَخَلَّصتُم مِن سجنِ أَغماتَ وَالتَوت عَلَيَّ قُيودٌ لَم يَحِن فَكُّها بَعدُ

فَهُنِّئتُمُ النُعمى وَدامَت لِكُلِّكُم سَعادَتُهُ إِن كانَ خانَني سَعدُ[2]

ومن خلال ما سبق ذكره نخلص إلى أن شعر المعتمد بن عباد عبر بصدق عن حالة الغربة وشدة ألمها النفسي على المعتمد بن عباد والذي بدوره جسد حالته في أسره وتحسره في منفاه.

ج- صورة الظلم:

لو اطلعنا بتأمل في طيات ديوان المعتمد لتبين لدينا حجم الظلم الذي تعرض له وعائلته من تشريد وتغريب وقهر ونفي وقتل واغتصاب لأملاكه، وقبل أن نبدأ بشرح صورة الظلم، لابد لنا أولا من إعطاء مفهوم للظلم.

لغة: ظلم: ظلمة، يظلمه ظلما، ومظلمة، وأظلمه أي وضع الشيء في غير موضعه.[3]

والظلامة والظليمة والمظلمة: ما تطلبه من الظالم، وهو اسم ما أخذ منك، وظلمني فلان أي ظلمني مالي، وتظلم منه أي اشتكى ظلمه.

أما في الاصطلاح: فالظلم فساد في الأرض وضربات قاتلة وسموم، وهو يحصل بالتعدي على حقوق الآخرين من مال أو دم أو عرض.[4]

---

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 185.

[2] المصدر نفسه، ص 185.

[3] الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، ص 720.

[4] دوخي بن زايد بن علي الحارثي، الظلم وأثره على الفرد والمجتمع في ضوء الكتاب والسنة، دار الطرفين للنشر، د ط، ص 331.

وقد حرمه سبحانه وتعالى على عباده وحرمه على نفسه بقوله: ﴿**وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[1]، وقوله: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾[2].

ومنه يتضح لنا أن الظلم إثم كبير، وله أثر بالغ على حياة الفرد والمجتمعات لأنه ينشر البغضاء والكره، وديننا الحنيف يدعو إلى المحبة والتآخي والإيثار.

ولذا فإن صورة الظلم في شعر المعتمد بن عباد ما هي إلا حالة القهر والمعاناة والتي عبر عنها المعتمد بلسان صادق محاولا وصف حجم الظلم والمأساة اللتين تعرض لهما هو وعائلته، حيث انتزع منه ملكه وعرشه، وقد جاء في الديوان يشكوا الظلم الذي لاقاه أولاده، يقول عن الضياع والتشرد الذي لقته بناته وعبّر عن صورتهن، وأقدامهن حافية يقول:

بَرزنَ نَحوَكَ لِلتَسليمِ خاشِعَةً أَبصارُهُنَّ حَسيراتٍ مَكاسيرا

يَطَأنَ في الطينِ وَالأَقدامُ حافِيَةٌ كَأَنَّها لَم تَطَأ مِسكاً وَكافورا[3]

وقال عن نفسه وكيف تغير حاله:

قَد كانَ دَهرُكَ إِن تَأمُرهُ مُمتَثِلاً فَرَدَّكَ الدَهرُ مَنهِيّاً وَمَأمورا

مَن باتَ بَعدَكَ في مُلكٍ يُسَرُّ بِهِ فَإِنَّما باتَ بِالأَحلامِ مَغرورا[4]

هذا وقد تعرض المعتمد بن عباد إلى الغدر والخيانة من أقرب الناس إليه، واعتبره ظلم في حقه حيث قال:

وَأَبقى أَسامُ الذلَّ في أَرضِ غُربَةٍ وَما كُنتُ لَولا الغَدر ذاكَ أُسامُ

فَبُلِّغتُها في ظِلِّ أَمنٍ وَغِبطَةٍ وَسُنّيَ لي مِمّا يعوقُ سَلامُ[5]

---

[1] القرآن الكريم، البقرة، الآية: 57.

[2] القرآن الكريم، فصلت، الآية: 46.

[3] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 169.

[4] المصدر نفسه، ص 169.

[5] المصدر نفسه، ص 177.

فما هو معروف أنه أعطى ثقته وسره لأناس لا تستحق الثقة، بداية بصديق عمره "ابن عمار" الذي طعنه، ولعب من ورائه، وبعده "يوسف ابن تاشفين" الذي وضع حد لعزه وملكه وأنهى به أسيرا في سجون مراكش "أغمات".

د- صورة السجن:

لقد جاء في الديوان بعض الصور الدالة على السجن الذي ذاقه المعتمد بن عباد في "أغمات"، وإذا أردنا معرفة معنى السجن لابد لنا من إعطاءه مفهوما:

لغة: سجن/السجن: الحبس والسَجن بالفتح: وقد سجنه أي حبسه وضربه.[1]

اصطلاحا: هو مؤسسة عقابية، تهدف إلى ردع المذنب عمله وإنزال العقوبة به وحجزه بنية تأديبية، وهذه المؤسسة حملت جوانب إيجابية وأسهمت بتوفير الأمن الاجتماعي.

وجاء في الذكر الحكيم عن نبي الله يوسف عليه السلام ، قوله تعالى: ﴿**السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ**﴾[2]

ومن خلال دراستنا لديوان المعتمد لاحظنا وجود صور كثيرة للسجن وأهواله، إذ جاء في القلائد: «ولما امتدت في الثقاف مدته واشتدت عليه قسوة الكبول، شدته وأقلقته همومه وأطبقت غمومه وتوالت عليه السجون وطالت عليه لياليه الجون...».

ولما قيدت قدمياه، وبعدت عنه الكبل ورحماه قال مخاطبا الكبل:

تَعَطَّفَ في ساقي تَعطُّفَ ارقَمِ يُساوِرُها عَضّا بأَنيابِ ضَيغَمِ

إِلَيكَ فَلَو كانَت قُيودُكَ أَسعَرت تَضَرّم مِنها كُلُّ كَفٍّ وَمِعصَمِ[3]

[1] الجوهري أبو نصر إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، ص 520.

[2] القرآن الكريم، يوسف، الآية: 33.

[3] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 182.

مخافة من كانَ الرجال بسببه ومن سيْفُهُ في جنةٍ أو جَهنَّم [1]!

وحين فقد من يجالسه في السجن و بعد عمن يؤانسه، وتمادى كربه قال:

تؤمل للنفس الشجية فرحة وتأبى الخطوب السود إلا تماديا

لياليك في زاهيك أصفى صحبتها كما صحبت قبلي الملوك الليالیا [2]

وبالتالي، فقصائد السجن مجموعا شعريا واحدا، خصوصًا في ائتلاف معظمها حول موضوع رثاء دولة بني عباد، غير أن هناك قصائد تختص بالرثاء أكثر من غيرها، فهو يحكي، و يصف أحوال السجن وكأنه يرثي ويتحسر على ما وصل إليه، فحياة الشقاء في السجن كانت تدعو للرثاء بصورة من الصور، فهو مسجون وعقله وروحه خارج السجن في بلده وعرشه وأولاده، فمما لاشك فيه أنه يستدعي بؤس بناته مثلا، حياة القصور السالفة في إشبيلية وما كان يسودها من نعيم وسعادة.

وفي محاولة لاستعادة أبرز الموضوعات التي خاض فيها المعتمد يمكن الاستعانة بالتصنيف الآتي:

1- «وصف حياة الأسر من خلال التركيز على القيم، قلة ذات اليد، بؤس البنات، الحديث إلى الزوجة، العلاقة بأسرى من أهل فاس وغيرها من جوانب لصيقة بيوميات السجن».[3]

2- مراسلاته الشعرية للوافدين عليه من شعرائه الخلّص، مع ما كانت تقتضيه من جواب ورد جواب.

3- الحنين إلى الديار، وحياة القصور فيها، مع ما كان يرافق ذلك من إحساس بالغربة في أغمات.

4- الفخر بالماضي رغم السجن والمأساة.

5- رثاء الأبناء منهم: الراضي، والمأمون بالخصوص.

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 183.

[2] المرجع نفسه، ص 185.

[3] المعتمد بن عباد، عبد الدين حموش في سنواته الأخيرة، ، ص 93.

6- رثاء النفس مثلما تجلى في قصيدته التي أمر أن تكتب على ضريحه والغريب أن الرثاء اقترن بالفخر القوي هنا، حتى وإن كان ذلك تحديا للموت.

ومن قصائد السجن التي نالت إعجاب الكثيرين هي: إحداهما لابن اللبانة التي تحمل عنوان لكل شيء ميقات، والثانية لابن عبد الصمد تحت عنوان "ملك الملوك".

«ففي قصيدة لكل شيء ميقات، جاءت في سياق زيارة ابن اللبانة للمعتمد بأغمات، حيث رثى فيها حال المعتمد ومواساته قال:

لكلّ شيءٍ من الأشياء ميقاتُ وللمنى من منائيهن غاياتُ

والدهر في صبغة الحرباء منغمسٌ ألوانُ حالاته فيها استحالاتُ

ونحن من لعب الشطرنج في يده وربّما قمرت بالبيدق الشاةُ

انفضْ يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

وقل بعالمها الأرضي قد كتمت سريرة العالم العلويّ أغماتُ

طوتْ مظلّتها لا بل مذلّتها من لم تزل فوقه للعزّ راياتُ» [1]

ثانيا: تجلي الحس المأساوي في ديوان المعتمد بن عباد من خلال غرض الرثاء

الرثاء في مفهومه اللغوي يعني البكاء على الميت، ومدحه بعد موته، وهو مدح الرجل وبكاؤه بعد موته[2]، وقد ورد تعريف الرثاء عند ابن منظور وغيره من أصحاب المعاجم، تقريبا حول معنى واحد ومتعارف عليه للرثاء وهو: البكاء على الميت وذكر محاسنه، رثى فلان فلانا: إذا بكاه بعد موته، ورثيت الميت أيضا إذا بكيته وعددت محاسنه وكذلك إذا نظمت فيه شعرا.[3] وليس بين الرثاء والمدح إلا أنه يمزج بالرثاء شيء أو قرينة تدل على أن

[1] المعتمد بن عباد، د.عبد الدين حمروش في سنوات الأخيرة، ص 94.

[2] ابن منظور محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت.

[3] الخليل أحمد، كتاب العين، 1980، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، القاهرة، دار ومكتبة المعلال، ص 234.

المقصود به ميت وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالأسف والتلهف، والاستعظام إذا كان الميت ملكا أو حاكما أو رئيسا كبيرا[1]، إذا فالمعنى الاصطلاحي للرثاء لا يبتعد كثيرا عن دلالته اللغوية، وقد جاء عند عدد من الأدباء والنقاد ومنهم "النويري" الذي يرى أن المراثي جعلت تسلية لمن عضته النوائب بأنيابها وفرقت الحوادث بين نفسه وأحبابه، وكذلك "المبرد" الذي حصر الرثاء في التعزية، والعزاء هو السلو وحسن الصبر على المصائب.[2]

وغرض الرثاء يصدر عن اللوعة والحزن والأسى والفجيعة والإحساس بالفقد وعبارات يملؤها الحزن والثكل، والشجون أَضرمتها حسرة الفقد، وبعثت الأسى في نفس الشاعر، كما أن الرثاء فن يقوم على تأبين الميت والإشادة به وبخصاله وصفاته وتعداد لمآثره وفضائله، والدعوة إلى الصبر على الشدائد، فالموت كأس دائرة على الجميع ولا مرد لحكم القضاء، ويأتي الرثاء أثرا وانعكاسا للحزن الذي يصيب الشاعر لموت حبيب أو قريب أو عزيز، ويجد فيه الشاعر متنفسا ليعبر عن مأساته وتفجعه وحزنه.[3]

ومن الشعراء الذين توالت عليهم النكبات وحرقت قلوبهم المآسي الشاعر الأندلسي "المعتمد بن عباد" ملك إشبلية الذي عانى الويلات وقاسى المحن، منذ اقتحام قصره، وما تعرض إليه من قهر ومعاناة، وأكثر من ذلك تشريد أفراد عائلته، زوجته وأولاده وبناته واغتيال بعضهم الآخر اغتيال أبنائه والقبض عليهم وسلبهم ما كانوا يملكونه من قبل البربر الذين شنوا الغارة على البلد، فانتهبت قصور المعتمد نهبا قبيحا، ومما يزكي هذه الرواية ويؤكد هذا الحديث ما نظم من قبل المعتمد في ذلك من شعر كثير في رثاء ذاته وزوجته وأولاده، ورثاء دياره وإماراته المسلوبة.[4]

---

[1] ابن رشيق القيرواني، العمدة من محاسن الشعر وآدابه، حققه وعلق على حواشيه محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط5، 1981م، ص 147/2.

[2] النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، تح: يحي الشامي، بيروت، دار الكتب العلمية، مجلد 2، ج5، ص 170-171.

[3] شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة، ط8، ص 207.

[4] ينظر: عبد الدين حمروش، المعتمد بن عباد في سنواته الأخيرة بالأسر، دار الكتب القطرية، قطر، ص 7،8.

أ- رثائه لأبنائه:

يعتبر الابن قطعة من كبد أبيه، يحبه ويفديه بالغالي والنفيس ويؤمن عليه المستقبل، فماذا عن الشاعر وهو يرى فلذة كبده يفارق الحياة ويتركه، ولعل من أهم الشعراء الذين رثوا أبنائهم، وكانت مشاعرهم تفيض لوعة وأسى الشاعر الملك "المعتمد بن عباد" الذي سيق وحيدا مكبلا بالأغلال والقيود في سجن أغمات بعدما استولى المرابطون على ملكه، وأسروه وقتلوا فلذات كبده ابنيه "المأمون، والراضي" فراح يبكيهما كما بكى نفسه فقال:

قُولونَ صَبراً لا سَبيلَ إِلى الصَبرِ سَأَبكي وَأَبكي ما تَطاوَل مِن عُمري

نَرى زُهرَها في مأتمٍ كُلَّ لَيلَة يُخَمّشنَ لَهفاً وَسطَهُ صَفحَةَ البَدرِ

يُنحنَ عَلى نَجمَين أَثكَلنَ ذا وَذا وَيا صَبرُ ما لِلقَلبِ في الصَبرِ مِن عُذرِ

مَدى الدهرِ فَلَيبكِ الغَمامُ مُصابَهُ بِصَنَوَيهِ يُعذَر في البُكاءِ مَدى الدهرِ

بِعَينِ سَحابٍ وَاكِفٍ قَطرُ دَمعِها عَلى كُلِّ قَبرٍ حَلَّ فيهِ أَخو القَطرِ[1]

الشاعر في هذه الأبيات يعيد ويستحضر مشهد العزاء الذي طلب منه فيه المعزون، الصبر على فقد أولاده، لكنه قابلهم برد غير متوقع فهو لا سبيل لصبر عنده، وسيظل يبكي أبناؤه كل ما تبقى من عمره، ثم إن الشاعر في البيت الموالي كأنه يرسم صورة مأتم في السماء وكأن الزهرة عندها مأتم والنجوم يخمشن الوجوه على فقد نجمين من أغلى نجومها غابا ولن يعودا للأبد، وقد أسقط المعتمد بذلك نفسه على الزهرة، فالزهرة تمثله هو وزوجته أما الراضي والمأمون هما النجمان اللذان ثكلهما المعتمد بعدما يخاطب الصبر أن لا عذر للقلب فيه، ويبين عظم مأساته ومصيبته، أما في البيت الرابع نلحظ مدى قدرة الشاعر على التفاعل مع الطبيعة ليجعل منها وسيلة يعبر بها عن مآسيه وأحزانه، فشاركته الطبيعة حزنه وأساه، وأكمل الشاعر قصيدته على هذا الرثم من الحزن والحسرة

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 162.

والتفجع والأسى، يخاطب الشاعر فيها البرق وصوره تصويرا استمد فيه ناره من قلبه الذي صار جمرا على أولاده يقول:

وَبرقٌ ذَكيُّ النارِ حَتّى كَأَنَّما يُسَعَّر مِمّا في فُؤادي مِنَ الجَمرِ [1]

وتتجدد أحزان الشاعر وتزداد كلما تذكر أن ولداه فارقا وحرما الحياة وهما في أوج شبابهما، تاركين أبا حزينا مفجوعا صغيير الشأن يقول المعتمد في ذلك:

تَوَلَيتُما وَالسنُّ بَعدُ صَغيرَةٌ وَلَم تَلبثِ الأَيّامُ أَن صَغَّرت قَدري

تَوَلَيتُما حينَ انتَهَت بِكُما العُلى إِلى غايَةٍ كُلٌّ إِلى غايَةٍ يَجري [2]

ثم يتبادر إلى ذاكرته حقيقة وواقعا مرا، وأن الموت له خير من حياته فحياته لا شيء غير القيد والسجن والأسى، فيقرر أن الموت أفضل لابنيه من رؤية أبيهما أسيرا مكبلا بالأغلال والقيود يتضح ذلك في قوله:

فَلَو عُدتَما لاخترتُما العودَ في الثرى إِذا أَنتُما أَبصَرتُماني في الأَسرِ

يُعيدُ عَلى سَمعي الحَديدُ نَشيدَهُ ثَقيلاً فَتَبكي العَينُ بالجسّ وَالنقرِ

مَعي الأَخَوات الهالِكات عَلَيكُما وَأُمكما الثكلى المُضَرّمة الصَدرِ [3]

وأكثر ما زاد في مصاب الشاعر مشهد زوجته اعتماد "الرميكية"وبناتها وهن ينبدبن المتوفين فرسم الشاعر لوحة تنبض أسى ولوعة وحرارة، وتفيض حزنا وألما على حال النسوة ودموعهن الصادقة، ويفصل في بكاء الأم التي تحاول جاهدة الصبر على فقد أكبادها وآلامها، لكن محاولتها تبوء بالفشل في ذلك فتبكي بدموع غزار لا تشبهها دموع السماء، في كل محاولاتها للصبر ومكابدتها للألم طلبا للأجر، يقول:

---

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 162.

[2] نفسه، ص 163.

[3] نفسه، ص 163.

مَعي الأَخَوات الهالِكات عَلَيكُما وَأُمكما الثَكلى المُضَرّمة الصَدرِ

تُذَلِلُها الذِكرى فَتَفزَعُ لِلبُكا وَتَصبر في الأَحيان شُحًّا عَلى الأَجرِ

فَتَبكي بِدَمعٍ لَيسَ لِلقطرِ مِثلُهُ وَتَزجُرُها التَقوى فَتُصغي إِلى الزَجرِ[1]

كما نلاحظ في نهاية القصيدة أن المعتمد لم ينسى ابنه سراج الدولة الذي قتله ابن عكاشة بقرطبة سنة (367هـ) وامتنع عن رثائه في تلك الفترة لأنه كان ملكا قويا حريصا على أن لا يظهر ضعفه؛ أما الآن وهو في الأسر، فلا سبيل له إلا أن يصور كل ما يعانيه من فَقد الولد والملك والعز والجاه والسلطة، فعبرت هذه القصيدة عما في نفسه لوعة من لغة شاعرية فيها من الأسى واللوعة والحسرة والحرمان الكثير يقول في ذلك:

أَبا خالِدٍ أَورَثتَني البَثَّ خالِدًا أَبا النَصرِ مُذ وُدّعتَ وَدَّعني نَصري

وَقَبلَكُما ما أَودَعَ القَلبَ حَسرَةً تُجَدّدُ طولَ الدَهرِ ثكلَ أَبي عَمروِ[2]

وفي هذا عبر المعتمد عن حجم مأساته، وما حل به وبأهله من محن، فقد أضحت زوجته الثكلى تعيش الذل والهوان، تراجعها ذكرى فلذات أكبادها بين الحينة والأخرى، فتكابد المأساة والألم، وتصبر نفسها طلبا في أجر من المولى تعالى، لكن قلب الأم الجريح الدامي على أولادها يأبى ذلك، وهذه الأبيات يتخللها وصف وتجنيس يجعلنا نشعر تماما بحجم مأساة الشاعر وما يعانيه من هم وألم وحسرة، وفيها تصوير للنصر الذي فارق الشاعر وغادره مع رحيل أبنائه، أما في البيت الأخير فإن المعتمد يظهر وفاءه لابنه سراج الدولة المكنى بـ "أبو عمرو" الذي خلف رحيله، حسرة وألما كبيرين في قلب أبيه يراجعانه بين الحين والآخر.

ويظل الشاعر يبكي ابنيه بنفس تفيض شاعرية عالية، حتى اتخذ من تغريد القمرية التي كانت بائحة بشجنها على سكنها وأمامها وكر فيه طائران يغردان اتخذ منها مناسبة ليبوح بها هو الآخر عن أحزانه ومأساته التي يعيشها بفقده لأحبابه وخلانه يقول في ذلك:

---

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 163.

[2] المصدر نفسه، ص 164.

بكتْ أَن رأت إِلْفين ضَمَّهُما وكْر مَساءً وَقَد أَخنى عَلى إِلفها الدَّهْر

بَكت لَم تُرِق دَمعًا وَأَسْبلتُ عَبرَةً يُقصِّرُ عَنها القَطرُ مَهما هَما القَطرُ

وَناحَت فباحَت وَاِستَراحَت بِسِرّها وَما نَطقَت حَرفًا يَبوحُ بِهِ سِرُّ [1]

توفي آخر القصيدة يشبه الشاعر ابنيه بالنجمين ويظهر أنهما قتلا بكل من قرطبة ورندة، ويطلب من نجوم الزهر أن تبكيهما معه أيضا يقول:

وَنجمان زَيّنَ لِلزَمان اِحتواهما بِقُرطبَةَ النّكداءِ أَو رُندَةَ القَبرُ

غدرتُ إِذًا إِن ضَنَّ جِفني بِقَطرِهِ وَإِن لُؤَمت نَفسي فَصاحِبها الصَّبرُ

فَقل لِلنُجومِ الزُّهرِ تبكيهما معي لِمِثلِهِما فلتَحزَنِ الأَنجُمُ الزُّهرُ [2]

كما قارن الشاعر في التعبير عن مأساته بعد أولاده بين حاله وأحزانه وألمه ونيرانه، وبين الغيم وناره التي سرعان ما تنطفي إذا قورنت بنيرانه التي تلهب وتشتعل كالبركان يقول:

يا غَيمُ عَيني أَقوى مِنك تَهتانا أَبكي لِحُزني وَما حُمّلتَ أَحزانا

وَنارُ بَرقِكَ تَخبو إِثرَ وَقدَتِها وَنارُ قَلبي تَبقى الدَهرَ بُركانا [3]

وفي ذلك تجلت قدرة شعرية رائعة للشاعر في تصوير مأساته من خلال تصوير الغيم حزينا باكيا، والبرق مشتعلا ثم يلتفت إلى أحزانه التي تتزايد يوما بعد آخر، ونيرانه التي شبهها بالبركان لكثرة قوتها، كل يوضح نبرة الحس المأساوي في شعر المعتمد، فهو يرى أن كل ما في هذا الكون يحزنه ويؤلمه، حتى الغيم الذي يكون سببا للخير والأمطار، التي تعم البلاد والعباد، كل هذا وذاك ما هو إلا مدعاة للحزن والألم، يجعل قريحته تفيض بشعر

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 164.
[2] المصدر نفسه، ص 165.
[3] المصدر نفسه، ص 166.

مأساوي، وتجعله حزينا ولعل ما خفف عن الشاعر مأساته عن ابنيه وعزى به نفسه أنهما سيكونان في ميزان أعماله يوم القيامة يقول:

بَكيتُ فَتحاً فَإِذ رُمتُ سَلوَتُهُ ثَوى يَزيدُ فَزادَ القَلبَ نيرانا

يا فلذَتَي كبِدِي يأبى تقطُّعها مِن وَجدِها بِكُما ما عِشتُ سُلوانا

لَقَد هَوى بِكُما نِجمانِ ما رَميا إِلّا مِن العُلوِّ بِالأَلحاظِ كيوانا

مُخَفَّفٌ عَن فُؤادي أَنَّ ثُكلَكُما مُثَقِّلٌ لي يَومَ الحَشرِ ميزانا[1]

إضافة إلى ذلك مما عزى به الشاعر نفسه أن ابنه المأمون شهيد ومكانة الشهيد عظيمة لأن الشهيد يسوغ لأهله في الجنة.

ثم بعدها يوجه النداء ليزيد طالبا راجيا من المولى تعالى أن يجعل ابنه يزيد شفيعا له يوم القيامة يقول:

يا فَتحُ قَد فتحَت تِلكَ الشهادَةُ لي بابَ الطِّباعَة في لُقياكَ جُذلانا

وَيا زَيدُ لَقَد زادَ الرَجا بِكُما أَن يَشفَعَ اللَهُ بِالاحسان إِحسانا

لمَّا شفعتَ أَخاكَ الفَتحَ تَتبعُهُ لقاكُما اللَهُ غُفراناً وَرِضوانا[2]

طالبا في هذه الأبيات الله تعالى أن يجزي ابنيه بالإحسان إحسانا ويدعو لهما بالمغفرة والرضوان والرحمة، فالشاعر هنا عزائه الوحيد في فقد فلذة كبده وهي أنهم سيكونون له شافعين يوم القيامة، عزائه الوحيد لنفسه في مأساته هذه هو الدعاء لهما بالمغفرة والرضوان والإحسان من الله تعالى راجيا متمنيا أن يكونا له خير شفاعة في يوم القيامة أمام المولى عز وجل.

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 166.

[2] المصدر نفسه، ص 167.

ب- رثائه لزوجته وبناته:

لقد تزوج المعتمد اعتماد الرميكية، زواجا على سنة الله وشريعته يقال إنه ركب المعتمد في النهر ومعه ابن عمار وزيره، وقد زردت الريح النهر، فقال ابن عباد لابن عمار: أجز: صنع الريح من الماء زَرَدْ...فأطال ابن عمار الفكرة فقالت امرأة من الغسالات أي درع لقتال لو جمد، فتعجب المعتمد ابن عباد من حسن ما أتت به هذه المرأة مع عجز ابن عمار، ونظر إليها، فإذا هي صورة حسنة فأعجبته، فتزوجها وولدت له أولاده الملوك النجباء.[1]

كانت الرميكية من المشهورات بالأندلس جارية ابن عباد وزوجته وقد اتحلت اعتماد مكانة خاصة في قلب المعتمد، وقد كانت جارية من النساء التي كن يبعن في سوق النخاسة، ويتمتعن بجمال وحسن، مع إلهام بالأدب والشعر كانت ولوعة بالناذرة وكلفة بالجناس، ولعل أجمل صفاتها كانت الظرف والشاعرية، ويبدو أن المعتمد أحب في هذه المرأة مقدرتها الشعرية التي آمن بها لحظة عجز ابن عمار وتماطله عن إكمال شطر البيت، فوقع في حبها منذ الوهلة الأولى..[2]

إن إقدام المعتمد على خطوة الزواج من جارية يعود بالدرجة الأولى إلى ولعه بالشعر وثانيا لأنه وقع على صورة حسنة، كما أن ا لمعتمد حين ضرب بكل الاعتبارات الطبقية عرض الحائط، ليتزوج بغسالة من الغسالات إنما يكشف عن افتتانه بجمالها الصارخ الذي هون عليه، ما كانت عليه، وكان المعتمد كثيرا ما يأنس بها ويستظرف نوادرها ولم تكن لها معرفة بالغناء وإنما كانت مليحة الوجه حسنة الحديث، حلوة، كثيرة الفكاهة، وكانت من الأخبار المشهورة للرميكية أنها أطلت ذات يوم من قصرها فرأت القرويات في يوم مطير يمشين في الوحل، فاشتهت أن تتشبه بهن، فأمر المعتمد فسحقت أنواع من الطيب في ساحة القصر، ثم صب عليها ماء الورد من غرابيل،

[1] المقري، نفح الطيب، ج5، ص 138.
[2] المرجع نفسه، ص 138.

وعجنت حتى صارت كالطين فمشت الرميكية وجواريها في هذا الوحل، وقد غاضبت المعتمد يوما فأقسمت أنها لم تر منه خيرا قط، فقال: ولا يوم الطين؟ [1]!، وكانت اعتماد مصدر إلهام للمعتمد...

وقد وصل حد شغفه بها أنها كانت سببا في قتله لصديقه ووزيره ابن عمار في لحظة سكر استغلتها بدهاء فذكرته به وأنشدته هجاءه فيه، وقالت له: قد شاع أنك تعفو عنه، وكيف ذلك بعدما نازعك ملكك، ونال من عرض حرمك؟ وهذا لا يحتمله الملوك ! فثار المعتمد لكلامها، وغرته بألفاظها فقصد بيت وزيره ابن عمار، وضربه بطبرزين شق به رأسه ففلق رأسه وترك الطبرزين في رأسه ورجع إلى الرميكية وقال: «لقد تركته كالهدهد».[2]

لقيت اعتماد مصير زوجها نفسه فنزلت من قصرها بأشبيلية فعاشت المأساة في منفاها بأغمات إلى جانب المعتمد بعدما كانت تعيش فيه نعم بجواره، ولاسيما ما يعرف بيوم الطين، الذي جسد فيه قيم الولاء والتقدير للمحبوب جسدت اعتماد بمرافقتها لزوجها في أغمات أسمى مراتب الوفاء، وقد بقيت ولوعة بالشعر والأدب حتى في أيام المحنة، والأسر، ويقال أنها لما خُلع المعتمد وسجن بأغمات قالت له: يا سيدي لقد هنّا هنَا...[3]

فأجابها المعتمد مجنسا أيضا: قالَت لَقَد هُنّا هُنا

مَولايَ أَينَ جاهُنا

قُلتُ لَها: إِلهُنا

صَيَّرَنا إِلَى هُنا[4]

وقد بقيت على هذا الحال من الحزن والأسر والأسى تقضي أيامها إلى جانب زوجها، في بيت حقير تستغيض به عن قصور اشبيلية، نعم إنه سجن أغمات اللعين بقيت على حالها تلك من الأسى والحرمان، إلى أن

[1] عبد الوهاب عزام، المعتمد بن عباد، ص 98.

[2] المرجع نفسه، ص 97.

[3] أبو محمد علي بن سعيد بن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، وضع حواشيه وفهرسه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 2008م، ص42.

[4] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 169.

وافتها المنية بعد مرض ألم بها، فظلّ ذلك غصة وألما وحرقة في قلب زوجها المعتمد بن عباد، الذي لم يتحمل ألم البين والفراق والوحدة، فقد زاده فراق اعتماد أسى وحزنا وألما، فوق أسى وحلم الأسر والقيد الكثير.

ولم يستطع المعتمد مقاومة لوعة فراقها ومواجهة الحياة بعد أن فارقته اعتماد خليلة روحه، وأقرب الناس إليه لذلك آثر الرحيل بعد غيابها.[1]

لعل من أقسى تجارب الألم والمعاناة والحزن في الأسر تجربة المعتمد بن عباد ملك اشبيلية بعد سقوط عرشه، وانهيار مملكته على يد يوسف بن تاشفين، فقد انقلبت حياته من حياة راضية إلى حياة بؤس، وشقاء، وقد كان هذا الأسر القاسي و ما عومل به من إذلال فيه، والموازنة بين حاضره وماضيه مدعاة لإثارة شجونه وإدماء عيونه. فحين دخلن عليه بناته يوم عيد وهن في أطمار بالية يكسوهنّ الشحوب والاكتئاب والذل والحزن، يلبسن ثيابا بالية وفي أيديهن المغزل يغزلن به للناس حتى من كان بالأمس خادما، نعم أتى العيد ولكن طعمه على الشاعر مرّ كالعلقم، فعادة الناس في الأعياد إظهار الفرحة والتزين بأجمل الثياب، لكن الأمر يختلف عند المعتمد فعيده لم يأت بجديد، ولكن قلب عليه أوجاعه وزاده ألما على آلامه يقول في ذلك: [2]

فيما مَضى كُنتَ بِالأَعيادِ مَسرورا فَساءَكَ العيدُ في أَغماتَ مَأسورا

ومما زاد معاناة الشاعر رؤيته للأطفال مبتهجين بالعيد بينما بناته جائعات يغزلن للناس، وفي العيد الماضي كنّ أميرات حولهنّ الخدم والحشم، فيصف بألم وحزن وبنبرة جد مأساوية ومؤثرة كيف جئن إليه يلقين التحيّة العيد وهنّ منكسرات لا يرفعن رؤوسهنّ، يقول:

تَرى بَناتَكَ في الأَطمارِ جائِعَةً يَغزِلنَ لِلناسِ ما يَملِكنَ قَطميراً

بَرزنَ نَحوَكَ لِلتَسليمِ خاشِعَةً أَبصارُهُنَّ حَسيراتٍ مَكاسيرا[3]

---

[1] ينظر: أبو محمد علي بن سعيد بن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، وضع حواشيه وفهرس له، أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 2008، ص 42.

[2] عبد الوهاب عزام، المعتمد بن عباد، ص 115.

[3] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 168-169.

ويتذكر يوم الطين يوم مشت اعتماد وبناتها على المسك والكافور، فإذا بهن اليوم حافيات يمشين على طين أغمات فقال:

يَطأنَ في الطين وَالأَقدامُ حافيَةٌ كَأَنَّها لَم تَطأ مِسكاً وَكافورا [1]

فالشاعر هنا يرى أنه لا ضرورة للعيش وتمني طول العمر لأي هدف يتمنى ذلك، أ يرى بناته ذليلات يخدمن بنات من كان بالأمس خادما له، يمنع عنه زائريه، أو يركض ذات اليمين وذات الشمال لينظم جيشا، أو يقدم خدمة، يقول في ذلك:

أأرغبُ أن أعيشَ أرى بناتي عَواريَ، قد أضرَّ بها الحَفاءُ

خَوادمَ بنتِ من قد كان أعلى مراتبه –إذا أبدُو– النّداءُ

وطردُ النّاس بين يدَيْ ممرِّي وكفُّهمُ إذا غَصَّ الفِناءُ

وركضٌ عن يمين أو شمالٍ لنظم الجيش إن رُفع اللواءُ [2]

والشاعر هنا في هذه الأبيات مزج الماضي بالحاضر ليحقق زمنا بديلا، زمنا هو مصدر توتره، لأنه يدرك تماما، أن رجوع الماضي مستحيلا وهو يتأسى ويتأسف على حاله التي آل إليها، ويرى أن الرضى بهذا الحال الحاضر أمر صعب لكن ممكن وغير مستحيل.

ومنهن بثينة بنت المعتمد بن عباد التي كانت على نحو أمها في الجمال والنادرة ونظم الشعر؛ كانت بثينة قد يئست يوم أحيط بأبيها وأخرج من اشبيلية أسيرا، ولم يزل المعتمد وأمها الرميكية عليها في وله دائم، لا يعلمان ما آل إليه أمرها، إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس في المغرب، وكان أحد تجار اشبيلية اشتراها على أنها جارية سرية، ووهبها لابنه، فنظر من شأنها فتهيأت له، وأراد الدخول بها امتنعت، وعرفته بنفسها وأظهرت نسبها، وطلبت منه أن يتزوجها بعد الحصول على موافقة أبيها، قالت: لا أحل لك إلا بعقد نكاح إن

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 169.

[2] المصدر نفسه، ص 176.

رضي أبي بذلك، وطلبت منهم أن توجه كتاب من قبلها إلى أبيها، وانتظار جوابه؛ فكان الذي كتبته بخطها من نظمها ما يلي: [1]

اسمع كَلامي واسِتَمع لمَقالتي فهيَ السلوك بدَت من الأجيادِ

لا تُنكروا أنّي سبيتُ وأنّني بنتٌ لملكٍ من بني عبّادِ

ملك عظيم قد تولّى عصرهُ وَكذا الزمان يؤول للإفسادِ

لمّا أرادَ اللّه فرقة شملِنا وَأَذاقَنا طعمَ الأسى عن زادِ

قامَ النفاقُ على أبي في ملكهِ فَدنا الفراق ولم يكن بمرادِ

فَخَرجتُ هاربةً فحازني امرؤٌ لَم يأتِ في أفعاله بسدادِ

إذ باعَني بيعَ العبيدِ فضمّني مَن صانَني إلّا من الأنكادِ

وَأرادني لنكاحِ نجل طاهر حسن الخلائق من بني الأنجادِ

وَمضى إليك يسومُ رأيك في الرضى وَلأنت تنظر في طريق رشادي

فَعساك يا أبتي تعرّفني بهِ إن كان ممّن يُرتجى لوداد

وَعسى رميكة الملوكِ بفضلها تَدعو لَنا باليُمنِ والإسعادِ [2]

فلما وصل شعرها إلى أبيها وهو بأغمات، واقع في شراك الكروب والأزمات، سر هو وأمها بحياتها، ورأيا أن ذلك للنفس من أحسن أمنياتها، إذ علما مآل أمرها وجبر كسرها إذ ذاك أخف الضررين، وإن كان الكرب قد سر القلب منه حجاب زين وأشهد نفسه بعقد نكاحها من الصبي المذكور، وكتب إليها في أثناء كتابه ما يدل على حسن صبره المشكور:

[1] عبد الوهاب عزام، المعتمد بن عباد، ص 114.

[2] المرجع نفسه، ص 114.

بُنَيَّتي كوني بِهِ بَرَّةً فَقَد قَضى الدَهرُ بِإسعافهِ [1]

وجه المعتمد هذا البيت إلى ابنته بثينة يوصيها فيه بالصبر وإرضاء زوجها.

ج- رثائه لملكه ودولته:

يندرج جزء وفير من شعره في إطار غرض رثاء الدول والإمارات وإن ألفينا لهذا الغرض نماذج من شعر العصور المتقدمة فإن في العصر الأندلسي غدا الغرض المذكور واضحا في معالمه الفنية الكبرى، واستقر بتأثير من الأحداث المتلاحقة التي شهدتها الدولة الأندلسية.

كثيرا ما يرادف سقوط المدن سقوط الإمارات بفعل سيادة حكم ما تسمى ملوك الطوائف، فنظرا لطبقة التشردم الحاصلة عصر ذاك، باتت كل مدينة أندلسية محتصنة إمارة على رأسها أمير لا يفتأ أن يدخل في صراعات مع أمراء وملوك مجاورين لأجل توسيع تراث إمارته، وتقوية نفوذها على حساب الإمارات الأخرى.[2]

تعدّ مملكة بني عباد في اشبيلية من أعظم ممالك الطوائف وأقواها وأكثرها نفوذا، وقد كان بلاطها ثريا زاخرا بأشهر شعراء العصر وزينتهم، وأعظم علمائه، لانفراد وتميز أميرها المعتمد بمعرفة كبيرة لفنون الأدب ونظم الشعر، وقد كان رثاء دولة بني عباد من اختصاص المعتمد نفسه، قبل غيره من شعراء بلاطه يقول في قصيدة مخاطبا المنجم أبا بكر الخولاني: [3]

أرمدت أم بنجومك الرمد؟ فَقَد عادَ ضدّا كُلُّ ما تَعدِ

إلى أن يقول في نهاية القصيدة:

المُلكُ لا يُبقي عَلى أَحَدٍ وَالمَوتُ لا يَبقى لَهُ أَحَدُ [4]

---

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 179.

[2] المعتمد بن عباد في سنواته الأخيرة، د. عبد الدين حموش، ص4.

[3] المرجع نفسه، ص 5.

[4] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 148.

ففي يوم الأحد الحادي والعشرين شهر رجب 484هـ، دخل المرابطون اشبيلية بعد قتال عنيف، بينهم وبين المعتمد، أظهر فيه بأسه وترامى على الموت بنفسه، وانتهى ذلك بأسره مع زوجته وأهل بيته ورحلوا بعد سلب جميع أموالهم، و نقل المعتمد إلى أغمات التي بقي أسيرا في سجنها إلى أن مات سنة (488 هـ)، يقول في ذلك:

قالوا الخُضوعُ سياسَةٌ فليبدُ منك لَهُم خُضوعُ

وَأَلَذُّ مِن طَعم الخُضوعِ عَلى فَمي السَمُّ النَقيعُ

إن يسلب القَومُ العدى مُلكي وتسلمني الجُموعُ

فالقَلبُ بَينَ ضُلوعِهِ تسلم القَلبَ الضُلوعُ

لَم أَستَلَب شرفَ الطباع أيسلَبُ الشَرفُ الرَفيعُ

قَد رُمتُ يَومَ نزالِهم أَلا تُحصّنَني الدُروعُ

وَبَرزتُ لَيسَ سِوى القَميصِ عَن الحَشى شيءٌ دفوعُ[1]

في هذه الأبيات كان الشاعر يستذكر يوم الأحد الليلة الإحدى والعشرين من رجب، يوم الحادثة الطامة الكبرى الذي حتم فيها الأمر الواقع، وأصيب فيه بلده وسلب منه أشد وأقصى استيلاب، يتحدث ويروي المعتمد عن مأساته وألمه ويتذكر يوم جد القتال واجتهدت الفرسان في النزال، حيث ظهر في الصفوف الأولى يدافع عن بلده وإمارته بيأس وشجاعة ويصف ترامية على الموت بنفسه يقول:

قَد رُمتُ يَومَ نزالِهم أَلا تُحصّنَني الدُروعُ

وَبَرزتُ لَيسَ سِوى القَميصِ عَن الحَشى شيءٌ دفوعُ

وَبَذَلتُ نَفسي كَي تَسيل إِذا يَسيل بِها النَجيعُ

أَجَلي تَأَخَّر لَم يَكُن بِهَوايَ ذُلّي وَالخُشوعُ[2]

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 150.

[2] نفسه، ص 150.

ولما آله عض الكبل والأسر وأعياه ثقله وأعياه نقله قال:

تَبدَّلْتُ من عزِّ ظِلِّ البُنود بِذُلِّ الحديد وثِقْلِ القُيودِ

وكان حديدي سِنانًا ذَليقًا وعَضْبًا رَقيقًا صَقيلَ الحديد

فقد صار ذاك وذا أدْهَمًا يَعَضُّ بساقيَّ عَضَّ الأُسُودِ[1]

إضافة إلى كل هذا فإن للمعتمد قصائد كثيرة يرثي فيها ما آلت إليه حاله ويبكي ويأسى ويتأسف على ملكه الضّائع، ويقول في ذلك:

اقِنع بِحَظِك في دُنياكَ ما كانَ وَعَزِّ نَفسِكَ إِن فارَقت أَوطانا

في اللَه مِن كُلِّ مَفقودٍ مَضى عِوَضٌ فأشعر القَلبَ سُلوانا وإيمانا

أَكُلَّما سنحت ذِكرى طَربتَ لَها مَجَّت دُموعكَ في خدّيكَ طوفانا

أَما سَمِعتَ بِسُلطانِ شبيهكَ قَد بَزَّتهُ سودُ خُطوب الدَهر سُلطانا

وَطِّن عَلى الكُرهِ وَارقُب إِثرَهُ فَرجاً وَاستَغفِرِ اللَهَ تَغنَم مِنهُ غُفرانا[2]

كان المعتمد كلما تذكر منازله و اشتاق إليها، وافتقد أوطانه وقصره، جاشت قريحته، بشعر كله أسى وألم على صعوبة الفقد وآلام الشوق، إلى موطنه، فكلما راودته ذكرى أوطانه وتصور بهجتها فراقته، وتخيل استحاشة أوطانه وقصره إلى قطانة وأظلام، وخلوه من حراسه وسماره، قال في ذلك:

بَكى المُبارَكُ في إثرِ ابن عَبّادِ بَكى عَلى أَثرِ غِزلانٍ وَآسادِ

بَكَت تُرَيّاهُ لا غُمَّت كَواكِبُها بِمِثلِ نَوءِ الثُرَيّا الرائحِ الغادي

بَكَى الوَحيدُ بَكى الزاهي وَقُبَّتُهُ وَالنَهرُ وَالتاجُ كُلٌّ ذُلُّهُ بادي

ماءُ السَماءِ عَلى أَبنائِهِ دُرَرٌ لُجَّةُ البَحرِ دومي ذاتَ إِزبادِ[3]

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 170.

[2] المصدر نفسه، ص 192.

[3] المصدر نفسه، ص 161.

وكان الحصن الزاهر من أجمل المواضع لدى المعتمد وأبهاما وأحبها إليه، لإطلالة النهر الجميلة، وإشرافه على القصر وجماله في العيون واستماله بالشجر والزيتون، وكان له به من العيش، والطرب المزرى بحلاوة الضرب، ما لم يكن لأحد وكان كثيرا ما يدير به راحته، ويجعل فيه راحته وانشراحه، فلما اشتدّ به الزمان بعدوانه، انقلبت موازين حياته، وسد عليه أبواب سلوانه لم يحن إلا إليه، ونفى الحلول لديه فقال:

غَريب بِأَرضِ المغربينِ أَسيرُ سَيبكي عَلَيهِ مِنبَرٌ وَسَريرٌ

وَتَندُبُهُ البيضُ الصَوارِمُ وَالقَنا وَينهلُّ دَمعٌ بَينَهُنَّ غَزيرُ

سَبكيهِ في زاهيه وَالزاهرُ النَدى وَطُلاّبُهُ وَالعَرفُ ثَمَّ نَكيرُ

إِذا قيلَ في أَغماتَ قد ماتَ جودُهُ فَما يُرتَجى لِلجودِ بَعدُ نُشورُ [1]

إلى أن يقول:

مَضى زَمَنٌ وَالمُلكُ مُستأنِسٌ بِهِ وَأَصبَحَ مِنهُ اليوم وَهوَ نَفورُ

فَيا لَيتَ شِعري هَل أَبيتَنّ لَيلَةً أَمامي وَخَلفي رَوضَةٌ وَغَديرُ

بِمُنبَتَةِ الزَيتونِ مورِثَةُ العُلى يُغَنّي حَمامٌ أَو تَرِنُّ طُيورُ

بِزاهِرِها السامي الذُرى جادَهُ الحَيا تُشيرُ الثُرَيّا نَحوَنا وَنُشيرُ [2]

الشاعر حينما يرثي ويعدد هذه الأمكنة لا يقصد من وراء ذلك تقريرا مجردا للأحداث تاريخية، أو لعلمنا بامتلاكه لها، ولكن لما كان لهذه المواضع من خصوصية عنده، ولأنه شعر بالألم لفقدها حقا، لذلك أراد أن يعبر عنها في دائرته الشعرية، ليعبّر ويظهر مدى التصاقه بها والذي جعلها في التي تبكي عليه وتحن إليه وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل عن قسرية الفقد والرغبة العارمة في العودة إليها، إذ شهدت تلك المواضع بأماكنها وقصورها وأنهارها عزة وملكه، فكأنه هنا يستصرخها ويستنطقها لتبكي زوال ملكه، كما يقول:

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 171.

[2] المصدر نفسه، ص 171.

تُؤَمِّلُ لِلنَّفسِ الشَجِيَّةِ فَرحَةً وَتأبى الخُطوبُ السودُ إِلّا تَماديا

لَياليكَ في زاهيكَ أَصفى صَحبِتُها كما صَحبَت قَبلي المُلوكُ اللَياليا

نَعيمٌ وَبؤسٌ ذا لِذَلِكَ ناسِخٌ وَبعدَهُما نَسخُ المَنايا الأَمانيا [1]

في هذه الأبيات ينسج الشاعر خيوط الأمل للعودة إلى الفرح والفرج في كنف الوطن، لكن الخطوب تأبى عليه ذلك ولكي يهرب من حتمية الخطوب التي فرضت عليه أن يرضى بالألم وبالأسر ويقبل مرارة السجن والغربة والبعد عن الديار والنفي منها ووجع النوى، من فقد الأوطان يفضل تذكر قصره الزاهي فيقول:

غَنتكَ أَغماتية الأَلحان ثَقَلَت عَلى الأَرواحِ وَالأَبدانِ

قَد كانَ كالثُعبان رُمحُكَ في الوَغى فَغَدا عَلَيكَ القَيدُ كالثُعبانِ

مُتَعدِّاد يَحميكَ كُلَ تعدّدٍ مُتَعَطِّفاً لا رَحمَةً لِلعاني.... [2]

إلى أن يقول:

هاتيكَ قَينَتُهُ وَذَلِكَ قصرُهُ مِن بَعد أَيّي مَقاصرٍ وَقيّانِ

مِن بعدِ كُلِّ عَزيزَةٍ روميَّةٍ تَحكي الحَمائِمِ في ذرى الأَغصانِ [3]

وهو في هذه الأبيات يقابل بين (القصر) المكان المرغوب و(أغمات) وهو المكان المعادي إضافة إلى القبر الذي جعل منه مكانا أليفا لأنه لم يجد المفرّ ممّا هو فيه، واقتربت نهايته فعبّر عن يأسه وهنأ ذلك القبر بدفنه والشّاعر يستخدم لغة الرثاء للتعبير عن مأساته في فقده لملكه ووطنه وإن كان الأمل يرجو إليه.

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 184.

[2] المصدر نفسه، ص 183.

[3] المصدر نفسه، ص 183.

د- رثائه لنفسه:

إن النكبات التي تعرض إليها المعتمد بن عباد ملك اشبيلية أجبرته على نذب نفسه، وتذكر ما سلف من عهده، فعندما استولى يوسف بن تاشفين على مملكة بني عباد باشبيلية زجّ به في السجن (سجن أغمات) بالمغرب وظلّ في سجنه حبيسا، إلى أن وافته المنية، كل هذه المآسي والنكبات التي داهمت المعتمد دفعته إلى رثاء ذاته، وأتاح له القدر التعبير عن نكبته بنفسه، فصور لنا مأساته وأحزانه وآلامه ومآسيه وصبغت هذه الحال المأساوية التي عاشها شعره بالحس المأساوي الأ لم، فصور الأ لم والمعاناة ومكابدة مشقات الأسر والذل والغربة في السجن، وتذكر سوالف عزه وسلطانه وجبروته، فقد انقلب سلطانه رأسا على عقب وغدا حاضره حرمانا وذلا، وغربة ومرارة، وألما، بعدما سلب منه الملك والعز والجاه، والرغد وفي هذه الأبيات المحملة بمشاعر الأسى والحزن على ضياع مجده يقول:

كُنتُ حِلفَ النَدى وربَّ السَماحِ وَحَبيبَ النُفوسِ وَالأَرواحِ

إِذ يَميني لِلبَذلِ يَومَ العَطايا ولقبض الأَرواحِ يَومَ الكِفاحِ

وَشِمالي لَقَبضِ كُلِّ عنانٍ يُقحِمُ الخَيلَ في مَجال الرِماحِ

وَأَنا اليَومَ رَهنُ أسرٍ وَفَقرٍ مُستَباحُ الحِمى مَهيضُ الجَناحِ[1]

لا أُجيبُ الصَريخَ إِن حَضَرَ الناس وَلا المُعتَفين يَومَ السَماحِ

عادَ بِشري الَّذي عهدتَ عُبوسا شَغَلَتني الأَشجانُ عَن أَفراحي

فالتِماحي إِلى العُيون كريهٌ وَلَقَد كانَ نزهَةَ اللَمّاحِ[2]

هنا في هذه الأبيات بدى تماما أن مشاعر الحزن الانهزامية أخذت مكانها في قلب المعتمد، فتحولت بعدها إلى اكتئاب حاد سيطر على تفكيره، وذلك من خلال نزعته إلى الأسى على الماضي والشعور بالفراغ وعدم

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص155.

[2] المصدر نفسه، ص 157.

الفائدة للمستقبل، مقيما مقارنة بين ماضيه الجميل وحاضره، الكئيب، التعيس فعند قراءتنا لهذه الأبيات نشعر أن أحاسيس المعتمد تتضارب بين الشعور بالارتياح واللذة والسعادة عند تذكر أيامه الخوالي أيام المجد، وبين الشعور والإحساس بالألم، والعجز واللافائدة وهو يعايش حاضره المرير، والشاعر في هذه الأبيات يرسم مرارة واقعه، حيث انقلبت به الموازين من ماضي العز والجاه، والمجد إلى حاضر الذلّ والهوان.

إضافة إلى القصيدة السابقة التي كتبها المعتمد في رثاء نفسه وأوصى أن تكتب على قبره كشاهد، كتبها لما أحس بقرب ساعته وحلولها يقول فيها:

قَبرَ الغَريب سَقاكَ الرائحُ الغادي حَقّاً ظَفَرتَ بِأَشلاء ابن عَبّادِ

بِالحِلمِ بالعِلمِ بِالنُعمى إِذِ اتّصلَت بِالخَصبِ إِن أَجدَبوا بالري لِلصادي

بالطاعِنِ الضارِبِ الرامي إِذا اقتَتَلوا بِالمَوتِ أَحمَرَ بالضرغمةِ العادي

بالدَهر في نَقِمٍ بِالبَحر في نَعِمٍ بِالبدرِ في ظُلمٍ بِالصَدرِ في النادي[1]

الشاعر في هذه الأبيات يطلب السقيا لقبره، متسائلا كيف جمع القبر وضم أشلاءه وكانت منزلته رفيعة عالية مهيأة يتساءل كيف ذلك، فالمعتمد قد وصف نفسه وبشكل أدق قبره بقبر الغريب، ويراه شيئا زائدا، مغروس في أرض غير أرضه والشاعر يظهر من خلال هذه الأبيات منفعلا انفعالا هادئا، وربما سكرات الموت هي السبب في هذا الهدوء، لأن الموت قد يبعث راحلة جسدية ومفادا نفسيا يريح الشخص المحتضر، والشاعر هنا لا يبكي خوفا من الموت، بل لأنه سيموت بعيدا عن أهله ووطنه اشبيلية وسيبقى قبره شاهدا على غربته لذلك يناديه "قبر الغريب سقاك الرائح الغادي"، وهذا النداء يدلّ على المصير الذي سيلقاه، وهو قبره الذي ينتظره بفارغ الصبر، أملا فيه أن يريح جسمه المتعب المنهك من أصفاد القيود، آملا أن ينسيه أساه وألمه ومحنته القاسية، انفعال الشاعر في هذه الأبيات نتيجة إحساسه بالفقد والبعد والضياع، وعدم تقبله لفكرة موته بعيدا عن وطنه، فقد

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 193.

كانت تجربة الأسر قاسية عليه، فحطمه الهم وأوهنه الأسى، وعمر اليأس قلبه، حتى بدأ يشعر بدنو أجله الذي يبدو أنه كان يراه حدا ونهاية لآلامه وأحزانه.[1]

جاء انفعال الشاعر في الأبيات السابقة واضحا نتيجة إحساسا بالفقد والضياع، وعدم تقبل فكرة الموت بعيدا عن ملاذه الأول ووطنه الحبيب، لكن سرعان ما خفّ بركان هذا الانفعال في نفس الشاعر، لتتحول إلى إيمان بقضاء الله وقدره على نفسيته هدوء تام،حيث يقول:

نَعم هُوَ الحَقُّ وَافاني بِهِ قَدَرٌ مِنَ السَماءِ فَوافاني لِمِيعادِ

وَلَم أَكُن قَبلَ ذاكَ النَعشِ أَعلَمُهُ أَنَّ الجِبالَ تَهادى فَوقَ أَعوادِ

كَفاكَ خارق بِما اِستودِعتَ مِن كَرمٍ رَوّاكَ كُلُّ قَطوب البَرق رَعّادِ[2]

إلى أن يقول:

وَلا تَزالُ صَلاةُ اللَهِ دائِمَةً عَلى دَفينكَ لا تُحصى بِتِعدادِ[3]

هنا في هذه الأبيات نلاحظ أن المعتمد تحوّل إلى إنسان مؤمن بقضاء ربه وقدره، ويلاحظ ذلك من خلال قصيدته في البيت الأول في قوله: "نعم هو الحق" حملت هذه العبارة من المعاني الكثير معاني الصبر والإيمان بالقدر، ويواصل الشاعر التعبير عن مشاعره والدعاء لقبره بالسقيا، ولعله أراد من خلاله دعائه هذا قيام حياة حول قبره، تذهب وحشته ووحدته وغربته، معبرا بذلك عما تعيش به نفسه من آلام وحزن ويتضح من خلال شعره هذا ما تحمله نفسه من خضوع وحسرة وإحساس صارخ بالفقد والهزيمة والضياع، ومشاعر مليئة بالكآبة والغربة والوحشة، فنقل كل ذلك في قالب شعري حزين يرسمه حس مأساوي عميق، اختلط فيه الاعتزاز بالنفس والإيمان بقضاء الله وقدره.

[1] ينظر: الإغتراب سيرة ومصطلح، محمد رجب، دار المعارف، الإسكندرية، 1978، ص 35.

[2] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 194.

[3] المصدر نفسه، ص 194.

لقد توالت النكبات والفواجع والمآسي على الشاعر وتكدست فوق قلبه آلام الفقد ولوعة الفراق ومأساة الأسر والسجن والغربة، وفقد الأهل والديار، فوجد في الرثاء متنفسا ليعبر عن مأساته وتفجعه وحزنه الذي أحرق قلبه وسيطر عليه، وتجري دموعه بغزارة وترسم لوحة الحسرة والألم لنفس مكلومة، تصدع شوقا وحنينا لأهله وأبنائه وديارة ومدنه وملكه المسلوب منه، فمزج الشاعر بذلك ألم الغربة والأسر ومأساة البعد عن الأهل والوطن وبالبكاء والحسرة لنقد أبنائه ويستظهر صورهم التي لا تغيب عن مخيلته فرثاهم بقصائد مليئة بعبارات الأسى والحزن والدموع، انعكس كل ذلك الحزن على الشاعر ونفسيته، فترجم ذلك شعرا يظهر فيه مناقب مواتية وشمائله، مزج الشاعر رثائه بالحكمة التي مفادها التبصر بحقيقة الحياة وعواقبها وحقيقة الموت.

يعاني الشاعر من الحزن واللوعة والشعور بالحنين إلى أهله وديارة وزمان مجده الذي مضى ولم يترك له إلا المآسي والمصائب، والذكريات التي تثير الأسى في نفسه فتجري دموعه لإحساسه بفقد سعادة الماضي بين الأهل والأحبة وفي العز والجاه، بينما يحتل حاضره عهد حزن وألم وبكاء ودموع لا أكثر بالنسبة إليه.

قد رثى الشاعر نفسه، وينضم من خلال ذلك أن الرثاء كان من الآثار المترتبة على الحزن الذي أصاب الشاعر الأندلسي الملك المعتمد بن عباد، كما أنه كان وسيلة للتعبير عن تفجعه وحسرته وحزنه وأساه، فجسّد من خلاله أسى عبارات الحزن والأسى في رثاء أهله وزوجته وأبنائه وبناته وملكه ومدنه وديارة وحتى في رثاء نفسه والتأسي من أجلها، وقد تخلل هذا الرثاء بعض معاني الحكمة والعبرة من الماضي والصبر على الشدائد والحث على الفضيلة.

ثالثا: تجليات الحس المأساوي في أسريات المعتمد بن عباد:

تشكل قصائد السجن أو ما تسمى بالأسريات مجموعا شعريا واحد تنوعت مواضيعه منها ما تعلق بحياة الأسر في "أغمات"، والواقع أنه حتى هذه القصائد في خطوطها العريضة ظلت مرتبطة بحياة المعتمد ومعاناته في سجون "أغمات"، والملاحظ أن من أهم الموضوعات التي غلبت على شعر المعتمد هو: شعر السجون الذي يحتوي على أحاسيس وعواطف صادقة ومناجاة وهواجس، وأفكار يفيض بها خاطر الشاعر «ولقد تمثلت الحياة في الأسر بالنسبة للمعتمد في صورة: الموت البطيء، إذ انصهرت ذاته بين الحيرة والقلق والمعاناة».[1]

هذا ما عاشه المعتمد بن عباد في أسره في "أغمات" إذ عاش في زاوية مظلمة، ولم يكن لديه حيلة أو وسيلة لاختراق تلك الأحزان سوى حبره وشعره «واستطاع بذلك الانعتاق من السجن وأبعاده المؤلمة حتى وإن كانت خيالا».[2]

بهذا نقول أن المعتمد بن عباد لجأ إلى أغراض ومواضيع شعرية والتي من خلالها فجر عواطفه بقوة، إذ نجد في شعره وهو في "أغمات": وصف السجن، وصف السجان، وصف القيد، الآلام والغربة، الشوق والحنين لبلده وعزه...

ومنه فالمعاناة التي جربها المعتمد والتي جعلته ينزل من القصر إلى حضيض الأسر، فكانت بذلك شكواه وغربته فنوع في مواضيع شعره وهو في السجن منها:

أ- الحنين والشوق:

إن الشعور بآلام الفراق والبعد، من أقسى الشعور الذي يعيشه الأسير بعد التعذيب، إذ كان السجن الجرح الذي لا يندمل لأن النجاة حلم بعيد المنال عن المعتمد بن عباد، فمن شدة شوقه وحنينه إلى أحبائه ووطنه

[1] علي أدهم، المعتمد بن عباد، ص 300.
[2] المرجع نفسه، ص 301.

ومملكته وعرشه، جعله يعيش معهم باستمرار عن طريق الذكريات، وأصبح يراهم في كل شيء حتى قيل أنه مر عليه سرب القطا فذكّره بأهله قال:

بَكيتُ إلى سربِ القَطا إذ مَررنَ بي سَوارِحَ لا سِجنٌ يَعوقُ وَلا كبلُ

هَنيئاً لَها إن لَم يُفَرِّق جَميعُها ولا ذاقَ مِنها البُعدُ عَن أَهلِها أَهلُ

وَإِن لَم تَبِت مِثلي تَطيرُ قُلوبُها إِذا اهتَزَّ بابُ السجنِ أَو صلصلَ القفلُ[1]

قد عاش المعتمد حالة نفسية حادة قيل أنها أعمق وأحدّ، وأشد وجعا من ألم الفراق والشوق، ألا وهي لقائه ببناته في السجن وهو يراهن داخلات عليه في حالة مزرية يوم العيد، وهذا ما زاده قهرا وحزنا وأسى على حالهن، الذي صل بهن من العز إلى الذل يقول:

ترى بناتِك في الأطمار جائعةً يغزلن للناس لا يملكن قِطْميرا

يَطَأْنَ في الطِّين والأقدامُ حافيةٌ كأنّها لم تَطَأ مِسْكًا وكافورا[2]

بمجرد أن نقرأ هذه الأبيات ندرك مدى عمق الألم والمعاناة التي أحس بها المعتمد في تلك اللحظة.

ب- الشكوى:

جرى على لسان المعتمد بن عباد ما يسمى بـ "شعر الشكوى" فقد كان يشكو حاله وأوضاعه، ومن ذلك شكواه من الدهر والدنيا وأنها تدور ولا تدوم لأحد، خاصة بعدما دارت عليه، إذ كان في عزه وملكه، ليصبح أسيرا في "أغمات" مقطوع الخبر، فمعاناة المعتمد جعلته ينزل من العز إلى الذل، فحظي شعره بالشكوى أو ما يسمى بـ "شعر الشكوى" إذ لقى ترحيب واسع، لأنه يعبر عن مأساة الشاعر بألفاظ حقيقية وأوجاع معاشة، فالمعتمد يشكو من الدهر، حيث صوره بأنه غادر ومخادع، ويدور ومن شيمه "الغدر بالأوفياء"، يقول:

أبى الدَهرُ أَن يَفنى الحَياءَ ويندما وَأن يَمحوَ الذَنبَ الَّذي كانَ قَدَّما

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 187.

[2] المصدر نفسه، ص 168-169.

وَأَن يَتَلَقّى وَجهُ عَتبي وَجهُهُ بِعُذرٍ يُغشّي صَفحَتيهِ التَذَمُما

سَتَعلَمُ بَعدي مَن تَكونُ سُيوفُهُ إِلى كُلِّ صَعبٍ من مراقِيكَ سُلّما[1]

كما كان المعتمد في أسره يشكو من غدر الزمن قال:

قُبِّحَ الدَهرُ فَماذا صَنَعا كُلَّما أَعطى نَفيسا نَزَعا

قَد هَوى ظُلماً بِمَن عاداتُه أَن يُنادي كُلَّ مَن يَهوى لَعا[2]

وقال أيضا:

دعا لي بالبقاءِ، وكيف يهوى أسيرٌ أن يطولَ به البقاءُ

أليس الموتُ أروحَ من حياةٍ يطولُ على الشّقيِّ بها البقاءُ[3]

ج- معاناته مع القيد:

لم يكف المعتمد شكواه من آلامه وأوجاعه ومأساته، فعندما شكا من الزمن وغدره ودورانه عليه، ذهب إلى القيد الذي لا يفارقه ولم يفارقه، فكان هو الآخر مصدر آلامه وأحزانه إذ كان مصدر إزعاج دائم، فعدما اشتدت عليه قسوة الكبول، وأطبقت غمومه، وتوالت عليه الشجون وطالت لياليه قال يخاطب قيده ويطلب الرحمة منه:

قَيدي أَما تَعلمني مُسلما؟ أَبيتَ أَن تُشفِقَ أَو تَرحَما؟

دَمي شَرابٌ لَكَ وَاللَحمُ قَد أَكَلتَهُ لا تَهشِم الأَعظُما[4]

وبقدر ما كانت تسببه هذه القيود من آلام وأوجاع، فهي تؤدي بأصواتها إذ تحركت ولمست الجسد فكانت تأكله، إذ بكى من آلام القيد فقال:

تعيد على سَمْعِي الحديدَ نشيده ثقيلاً فتبكي العينُ بالحبس والنقر[5]

---

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 158.

[2] المصدر نفسه، ص 176.

[3] المصدر نفسه، ص 176.

[4] المصدر نفسه، ص 181.

[5] المعتمد بن عباد، ص 181.

ولأن القيد كان ثقيلا وما سببه للمعتمد من ألم وذل على حد سواء، فكان من المعتمد أن يشبهه بالثعبان لشده التواءه وقسوته يقول:

غَنتكَ أَغماتية الأَلحان ثَقَلَت عَلى الأَرواحِ وَالأَبدانِ

قَد كانَ كالثُعبان رُمحُكَ في الوَغى فَغَدا عَلَيكَ القَيدُ كالثُعبانِ[1]

وكانت معاناته مع القيد والأسر، حكاية غير منتهية، إذ كانت ملازمة في أسره.

د- وصف السجن:

من شدة معاناة المعتمد ومأساته، عاد إلى وصف السجن وأهواله، فكان يصف كل ما تقع عليه عينه من وصف الغربان والحشرات السامة، وصف السجان...الخ.

يقول مخاطبا الغربان:

غربانَ أَغماتَ لا تَعدَمنَ طَيبَةً مِنَ اللَيالي وَأفناناً مِن الشَجرِ

تُظِلّ زُغبَ فِراخٍ تَستَكِنُّ بِها مِنَ الحَرورِ وَتَكفيها أَذى المطرِ[2]

وقد كتب للغربان أيضا يدعو لهم خيرا، ويتمنى لهم ليالي سعيدة وأفنانا من الشجر تلجأ إليها الفراخ، لتحتمي من الحر والبرد، وهذا يدل على تعاطفه معهم يقول:

كَما نعبُتَنَّ لي بالفأل يُعجِبُني مُخبِّراتٍ بِهِ عَن أَطيَبِ الخبرِ

أَنَّ النُجومَ الَّتي غابَت قَد اقتَرَبَت مَنّا مَطالِعُها تَسري إِلى القَمَرِ[3]

ثم يعد المعتمد فيعطي الغربان وعوده فيقول:

عَليَّ إِن صَدّق الرحمانُ ما زَعَمت أَلّا يُرَوَّعنَ مِن قَوسي وَلا وَتَري

---

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 183.

[2] المصدر نفسه، ص 189.

[3] المصدر نفسه، ص 189.

وَاللَهِ وَاللهِ لا نفَّرتُ واقعَها وَلا تَطَيَّرتِ الغِربانُ بِالعَورِ[1]

ولأن المعتمد يعيش في السجن و حدّة وخوف واضطراب ووحشة السجن وخوفه من الموت دون رؤية أحبته، حين يسمع صوت القفل يعده الجلادون أتوا إلى قتله وأن الموت قد جاءه.

يقول عن حالته متأملا في الخروج:

تُؤَمِّلُ لِلنَّفسِ الشَجِيَّةِ فَرحَةً وَتأبى الخُطوبُ السودُ إلّا تَماديا

لَياليكَ في زاهيكَ أَصفى صَحبتُها كَما صَحبَت قَبلي المُلوكُ اللَياليا[2]

ويقول واصفا حالته:

أَما لانسكابِ الدَمعِ في الخَدِّ راحَةٌ لَقَد آنَ أَن يَفنى وَيَفنى بِهِ الخَدُّ

هُبوا دَعوَةً يا آلَ فاسٍ لِمُبتَلٍ بِما مِنهُ قَد عافاكُمُ الصَمَدُ الفَردُ[3]

ثم عاد لوصف سرب القطا الذي لا يحسدهم على حريتهم بها بلا قيد، بلا أسر، بلا مأساة لا شيء يفتت قلبها لا خوفا ولا فزعا يقول:

بَكيتُ إِلى سربِ القَطا إِذ مَرَرنَ بي سَوارِحَ لا سِجنٌ يَعوقُ وَلا كبلُ

وَلَم تَكُ وَاللَهُ المعيذُ حسادَةً وَلَكِن حَنيناً إِنّ شَكلي لَها شَكلُ

فاسِرح فَلا شملي صَديعٌ ولا الحَشا وَجميعٌ وَلا عَينايَ يُبكيهِما ثُكلُ[4]

عند قراءة هذه الأبيات نلاحظ أنه كرر عبارات أو مفردات تدل على اليأس والفشل والهزيمة، وأنه لا أمل في الحرية وأن الموت يطرق بابه في أي لحظة منها (الدمع، بكيت، لم تك...ثكل...)، وكلها بنيات افرادية تبعث عن الحس المأساوي والتفجّع.

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 190.
[2] المصدر نفسه، ص 184.
[3] المصدر نفسه، ص 185.
[4] المصدر نفسه، ص 187.

هـ- آلام الغربة:

يعد المعتمد بن عباد أكثر الملوك الذين استهدفهم الخلع والنفي و"أغمات" كانت أكبر مثال على ذلك، إذ عاش فيها غربة وحنينا، لا ينتهيان إذ بكى فيها مجده وحنينه إلى اشبيلية التي تم أخذها منه غصبا، فرثى بذلك نفسه حيا فقال:

مَضى زَمَنٌ وَالمُلكُ مُستأنِسٌ بِهِ وَأَصبَحَ مِنهُ اليوم وَهوَ نَفورُ!

بِرأيٍ مِن الدهرِ المُضلِلِ فاسِدٍ مَتى صَلُحَت لِلصالِحينَ دُهورُ![1]

وقد جاء في القلائد أنه تذكر منازله، وقصره، فشاقته وتصور بهجتها، وبين الماضي المجيد والحاضر الذليل، يحترق شوقا لأيام المجد فيقول:

بَكى المُبارَكُ في إثرِ ابن عَبّادِ بَكى عَلى أَثرِ غِزلانٍ وَآسادِ !

بَكَت ثُرَيّاهُ لا غُمَّت كَواكِبُها بِمِثلِ نَوءِ الثُرَيّا الرائحِ الغادي !

بَكى الوَحيدُ بَكى الزاهي وَقُبَّتُهُ والنَّهرُ والتّاجُ كلٌّ ذُلَّهُ بادِ[2]

فما كان بشيء يواسي وحدته وحزنه سوى أبيات من الشعر كان يلقيها، فيبكي عزه الغابر ومجده الذي ضاع واندثر وهذه كانت أهم الموضوعات التي أشار إليها المعتمد هو وهو أسير في أغمات.

رابعا: تجليات الحس المأساوي من خلال عنونة قصائد المعتمد:

على الرغم من كل محاولاتنا لاختصار سيرة وشعر المعتمد بن عباد، إلا أننا وجدنا أن الشاعر الملك يستحق أن نعود إليه مرة أخرى، ونقدم جوانب أخرى من حياته لخصها في مجموعة من القصائد، لنقل أن كل قصيدة من قصائد المعتمد فيها نبرة مأساوية أو جانب مأساوي يستحق سرده، لأنه كان لا يقول الشعر ليظهر قدرته اللغوية، لا بل كان ينظمه ليجسد مشاعره ويسرد، ويصور ما عاشه في "أغمات".

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 171.

[2] المصدر نفسه، ص 161.

ولعل كل قصيدة من قصائد المعتمد كانت تحمل دلالات مأساوية، فقصيدته الأولى كانت تحت عنوان: "الأصل تتبعه الفروع".

وقد قالها حين هوجم في اشبيلية، واقترح عليه الوزراء والأعوان طلب الاستعطاف والخضوع لابن تاشفين وجيش المرابطين، لكنه رفض الاستسلام فقال وقتها:

لمّا تَماسَكتِ الدُموعُ وَتنبّهَ القَلبُ الصَديعُ

قالوا الخُضوعُ سياسَةٌ فليبدُ مِنك لَهُم خُضوعُ

وَأَلَذُّ مِن طَعم الخُضوعِ عَلى فَمي السَمُّ النَقيعُ

إِن يسلب القَومُ العدى مُلكي وتسلمني الجُموعُ

فالقَلبُ بَينَ ضُلوعِهِ لَم تسلم القَلبَ الضُلوعُ

لَم أَستَلَب شرفَ الطباع أيسلَبُ الشَرفُ الرَفيعُ

قَد رُمتُ يَومَ نزالِهم أَلا تُحصّنَني الدُروعُ

وَبَرزتُ لَيسَ سِوى القَميصِ عَن الحَشى شيءٌ دفوعُ

وَبَذَلتُ نَفسي كَي تَسيل إِذا يَسيل بِها النَجيعُ

أَجَلي تَأَخَّرَ لَم يَكُن بِهَوايَ ذُلّي وَالخُشوعُ

ما سرتُ قَطُّ إِلى القِتال وَكان مِن أَملي الرُجوعُ

شِيَمُ الأُلى أَنا مِنهُم وَالأَصل تَتبَعه الفُروعُ[1]

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 150.

إذا ما أردنا تحليل أفعال القصيدة نجد برزت، بدلت، تسيل، نجدها كلها أفعال عطاء، ثم ختم بعنوان القصيدة الأصل تتبعه الفروع، وهو دليل على تمسكه بأصله وبأرضه وشيمه ومبادئه وخصاله وهو لا ينكرها، ولم تكن برغبة منه تركها ألما غصبا.

والمعتمد قيل إنه يفضل أكل السم بدلا من الخضوع لأنه كما ذكر ليس من شيم الرجال الاستسلام والخضوع فقال:

وألذُّ من طعم الخضوعِ عَلى فمِي السُّمُّ النقيعُ [1]

كما كانت حسرته على أيامه كيف كان؟ وكيف أصبح؟ فكانت حالته الحاضرة منبعا من منابع شعره، جاء في رثاء النفس في الشعر الأندلسي: «وهو ينسلى عما يتذوق الآلام، وليس في البؤس معين غير الشكوى، وللمنكوب ارتياح لغير ابنيه ونظره إلى أيامه الماضية، وإلى تلك اللحظات التي كان ينعم فيها، فترتاح نفسه إلى ذكرها، فيشعر كأنه لا يزال في نعيمها، ولذاتها ليخفف عن نفسه وطأة التفكير بمنحه الزوال من الملك، وليكون ذلك تعويضا أو بعض تعويض الحرمان...». [2]

قَد كانَ دَهرُكَ إِن تأمَرُهُ مُمتَثِلاً فَرَدّكَ الدَهرُ مَنهيّاً وَمأمورا

مَن باتَ بَعدَكَ في مُلكٍ يُسرُّ بِهِ فَإِنَّما باتَ بِالأَحلامِ مَغرورا [3]

وقد أجمل في وصف الدنيا، بعد أن عرف صروفها، وأنها ليست دائمة لأحد، وأن البقاء وإن كان للأقوى فهي زائلة لا محال فله قصيدة بعنوان "الدنية الدنية" فقال فيها:

أَرى الدُنيا الدَنيَّةَ لا تُواتي فَأَجمَل في التَصَرُّف وَالطِلابِ

وَلا يَغُرُرك مِنها حُسنُ بُردٍ لَهُ عَلَمانِ مِن ذَهَب الذَهابِ

---

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 150.

[2] مقداد رحيم، رثاء النفس في الشعر الأندلسي، جهينة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2007، ص 255.

[3] الديوان، ص 169.

فَأَوَّلُها رَجاءٌ مِن سَرابٍ وَآخرِها رِداءٌ مِن تُرابِ[1]

وهي من أحسن ما قاله في الزهد.

وله قصيدة بعنوان "قبِّح الدهر" فدلالة العنوان أنه فقد لذة العيش والرغبة في عيشته ذليلا مأسورا، فهو هنا يشكو من الدهر أو الزمن ودورته، كان عزيزا فأصبح ذليلا، فجاء في "نفح الطيب" وقال: المعتمد بعدما خلع وسجن:

قُبِّحَ الدَهرُ فَماذا صَنَعا كُلَّما أَعطى نَفيسا نَزَعا

قَد هَوى ظُلماً بِمَن عاداتُه أَن يُنادي كُلَّ مَن يَهوى لَعا!

مَن إِذا قيل الخَنا صَمّ وَإِن نطقَ العافون هَمسا سَمِعا

مَن إِذا الغَيثُ هَمى مُنهمِراً أَخجَلته كَفّه فانقَطَعا

مَن غمامُ الجودِ مِن راحتِهِ عصفت ريحٌ بِهِ فانقَشَعا

قُل لِمَن يَطمَع في نائلِهِ قَد أَزالَ اليَأسُ ذاكَ الطَمَعا

راحَ لا يَملِكُ إِلّا دَعوَةً جبَرَ اللَهُ العُفاةَ الضُيَّعا[2]

ويضيف ابن خاقان في "القلائد" مقاومة المعتمد يوم هجوم ابن تاشفين قال: «فلقيهم في رحبة القصر وقد طاف بهم فضاؤها، وتضغضغت من رحبتهم أعضاؤها، فحمل عليهم حملة صيرتهم فرقا وملأتهم فرقا، وما زال يوالي عليهم الكل حتى أوردهم النهر...وعاد إلى قصره واستمسك به يومه، وليلته مانعا لحوزته، ودافعا لذل عن عزته، وقد عزم على أفضع أمر وقال بيدي لا بيد عمرو، ثم صرفه نفاه كما كان نواه...».[3]

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 152.

[2] المصدر نفسه، ص 155.

[3] قلائد العقيان، ابن خاقان، ص 22.

أما في "قصيدته الثانية" التي تحمل عنوان "في أغمات مأسورا" فعنوان القصيدة يدل على وقوعه أسيرا في سجون أغمات، فقد كانت حالة المعتمد في أسره يرثى لها كما قال عنها ابن خاقان في كتابه القلائد: «وأول عبد أخذه بأغمات، وهو سارح وما غير الشجون له مسارح...، فدخل عليه بنيه، من يسلم عليه ويهنئه وفيهم بناته، وعليهن إضمار، كأنها كسوف وهن أقمار يبكين عند التمايل ويبدين الخشوع بعد التحايل والضياع...».[1]

فقال المعتمد وقتها هذه القصيدة:

فيما مَضى كُنتَ بِالأَعيادِ مَسرورا فَساءَكَ العيدُ في أَغماتَ مَأسورا

تَرى بَناتَكَ في الأَطمارِ جائِعَةً يَغزِلنَ لِلناسِ ما يَملِكنَ قَطميراً

بَرزنَ نَحوَكَ لِلتَسليمِ خاشِعَةً أَبصارُهُنَّ حاسِراتٍ مَكاسيرا

يَطأنَ في الطينِ وَالأَقدامُ حافِيَةٌ كَأَنَّها لَم تَطَأ مِسكاً وَكافورا

لا خَدَّ إِلّا تَشكّى الجَدبَ ظاهِرُهُ وَلَيسَ إِلّا مَعَ الأَنفاسِ مَمطورا

أَفطَرتَ في العيدِ لا عادَت إِساءَتُهُ فَكانَ فِطرُكَ لِلأَكبادِ تَفطيرا[2]

وله قصيدة بعنوان "شغلتني الأشجان" ، وعنوان القصيدة يحمل دلالة نفسية عميقة وجرحا يأبى الاندمال، فهذه القصية كانت رد الرشيد الذي عتب عليه وله يرد عليه، فكتب المعتمد هذه الأبيات مستعطفا له بعنوان "شغلتني الأشجان"، أي أنه كان منشغلا بما حل به من نفي وحرمان وظلم ومأساة لا متناهية قال:

كنتُ حِلفَ النَدى وربَّ السَماحِ وَحَبيبَ النُفوسِ وَالأَرواحِ

إِذ يَميني لِلبَذلِ يَومَ العَطايا ولقبض الأَرواحِ يَومَ الكِفاحِ

وَشِمالي لَقَبضِ كُلِّ عنانٍ يُقحِمُ الخَيلَ في مَجالِ الرِماحِ

وَأَنا اليَومَ رَهنُ أسرٍ وَفَقرٍ مُستَباحُ الحِمى مَهيضُ الجَناحِ

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 28-29.

[2] المصدر نفسه، ص 155.

لا أُجِيبُ الصَريخَ إن حَضَرَ الناس وَلا المُعتَفين يَومَ السَماحِ[1]

كما للمعتمد قصيدة من أجمل ما كتب تحت عنوان "يقولون صبرا"، وهذا العنوان يحمل دلالة نفسية هو الآخر أنهم يقولون له صبرا، بينما لا يشعرون بما يعيشه هو وما يشعر به، وما مر عليه من أحزان وكرب، لأنه لا أحد يستطيع تصوير ما مر أو ما يمر به غيره قال في هذا القصيدة:

يُقولونَ صَبراً لا سَبيلَ إلى الصَبرِ سَأَبكي وَأَبكي ما تَطاوَل مِن عُمري

نَرى زُهَرها في مأتمٍ كُلَّ لَيلَةٍ يُخَمّشنَ لَهفاً وَسطَهُ صَفحَةَ البَدرِ

يُنُحنَ عَلى نَجمَين أَشكَلنَ ذا وَذا وَيا صَبرُ ما لِلقَلبِ في الصَبرِ مِن عُذرِ

مَدى الدهرِ فَليَبكِ الغَمامُ مُصابَهُ بِصَنَوَيهِ يُعذَر في البُكاءِ مَدى الدهرِ

بِعَينِ سَحابٍ وَاكِفٍ قَطرُ دَمعِها عَلى كُلِّ قَبرٍ حَلَّ فيهِ أَخو القَطرِ

وَبرقٌ ذَكيُّ النارِ حَتّى كَأَنَّما يُسَعَّرُ مِمّا في فُؤادي مِنَ الجَمرِ[2]

فلم يرثِ المعتمد اِبنه سراج الدولة الذي صرعه ابن عكاشة بقرطبة، وقال الفتح في القلائد «فلم تحفظ له فيه قافية، ولا كلمة للوصية شافية إلا إشارته إليه في تأبين أخويه المأمون الذي قتله ابن تاشفين في قرطبة والراضي الذي قتل برندة...».[3]

فما كان من المعتمد أن رد بهذه الكلمات، وعن أي صبر يتحدثون والألم لا يفارقه، هل يهتم بحاله أم لحال أفراد أسرته الذين يسقطون الواحد تلو الآخر، كيف حرقت كبدته وهو في أغمات مأسورا، فلا سبيل للصبر هنا، فلم يكف ابن تاشفين بنفيه وأسره حتى غيَّم عليه الحزن إلى أن وفته المنية وهو متحسر على أولاده.

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 157.

[2] المصدر نفسه، ص 162.

[3] ابن خاقان، قلائد العقيان، ص 13، 14.

أما قصيدة "ملك الملوك للشاعر أبي بكر بحر بن عبد الصمد" فيقول فيها هذه القصيدة قيلت فوق قبره، فرثوه بها وأنشدوها عند قبره ، وبكوا عليه، ومنهم عبد الصمد شاعره المختص به وقال فيها:

مَلِكَ المُلوكِ أَسَامِعٌ فَأُنَادي أَمْ قَد عَدَتكَ عن النِّداءِ السَّمَّاعِ؟

لما خَلَتْ منكَ القُصور ولم تكن فيها كما قد كُنتَ في الأَعيادِ

أَقْبلتُ في هذا الثَّرى لَكَ خاضِعاً وَتخَذتُ قَبرَكَ مَوْضعَ الإِنشادِ

قد كُنتُ أَحسبُ أَنْ تُبردِ أَدمعي نيرانُ حُزْنٍ أُضْرِمَتْ بِفُؤادي

فإذا بِدَمعي كُلَّما أَجريتُهُ زَادَتْ عليَّ حَرارَةُ الأَكبادِ

فالعيدُ في التسكابِ والتهنانِ والأَحْشَاءُ في الأحراق والايقادِ

يا أيها القَمَرُ المُنيرُ أهكَذا يُمْحَى ضياءُ النَّيرِ الوقّادِ[1]

هذه القصيدة كان لها الأثر الكبير في نفسية قارئ قصة المعتمد ومأساته، لأنها تأثرت بما وقع له، حتى لو لم تكن هي فقط، لكن تأثرها كان واضحا.

لقد كان قصر الزاهي، من أجمل المواضع وأحبها إلى نفس المعتمد ولما آل إلى سجنه في أغمات هزه الشوق والحنين إلى دياره، ومنها الزاهي فقال:

يُبْكيهِ في زاهيه والزاهُر النَدى وطُلاَبُهُ والعرفُ ثم نكيُر

إذ قيل في أغمات قد ماتَ جُوْدُهُ فما يُرتجى للجودِ بعدُ نشوُر[2]

ونجد المعتمد يأسف على حاله مرة أخرى وعن الوضع الذي آل إليه يقول:

تسيُر إلى أرضٍ بها كنتَ مضغة وفيها اكتستْ باللحم منك عظامُ

فبلغتَها في ظلِّ أمنٍ وغبطةٍ وسِّني لي مما يُعوقُ سلاَمُ[3]

---

[1] عبد الدين حمروش، المعتمد بن عباد في سنواته الأخيرة بالأسر، ص 169.

[2] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 171.

[3] المصدر نفسه، ص 177.

لما اشتدت عليه قسوة الكبول، شدته وأقلقته همومه وتوالت عليه الشجون والأحزان، وطالت لياليه، وأصبح ليله كنهاره لا نوم يزوره ولا تفكير يغادره، وزاد عليه وجع القيد يقول له طالبا الرحمة منه:

ارحمْ طُفيلا طائشًا لبه، لم يخشى أن يأتيك مسترحمَا

وارحم أحنياتٍ له مثله جزعت هن السمَّ والعلقما [1]!

وقال لما قيدت قدماء قال مخاطبا الكبل:

تَعطَّفَ في ساقي تَعطُّفَ ارقَمِ يُساوِرُها عَضّا بِأَنيابِ ضَيغَمِ

إِلَيكَ فَلَو كانَت قُيودُكَ أَسعَرت تَضَرّم مِنها كُلُّ كَفٍّ وَمِعصَمِ [2]

فهو في هذه الأبيات يخاطب القيد طالبا منه الرحمة لأنه شرب دمه وأكل لحمه، فيرجوه ألا يهشم ما تبقي من العظام.

وهو في أسير إذ رأى قمرية بائحة بشجنها، وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغما ويغردان ترحة وترنما، فذكرتاه بولديه "الراضي والمأمون" يقول:

بَكَت أَن رأت إِلفَين ضَمهُما وَكرُ مَساء وَقَد أَخنى عَلى إِلفها الدَهرُ

بَكَت لَم تُرِق دَمعاً وَأَسبلتُ عَبرَةً يُقصّرُ عَنها القطر مَهما هَما القطرُ [3]

إلى أن قال:

فَقل لِلنُجوم الزهرِ تبكيهما معي لِمِثلِهِما فلتَحزَنِ الأَنجُمُ الزهرُ [4]

فلا غرابة هنا أن يكون رثاء المعتمد لنفسه أو حتى لأبنائه، أو رثاء لدولته حتى، فهنا نلاحظ ارتباط المعتمد الشخص أو الأب بالمعتمد الملك.

---

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 181.
[2] المصدر نفسه، ص 182.
[3] المصدر نفسه، ص 164.
[4] المصدر نفسه، ص 165.

ومنه نلاحظ أن المعتمد حتى و إن كان غائبا وبعيدا عن أهله وأحبته، فهو دائم الذكر لهم بقلبه وقلمه وفكره، حتى وإن ماتوا، فهو يذكرهم ويرثيهم، ولم ينساهم لأنهم فلذة كبده، ويراهم في كل ما تسقط عليه عينه وهو أسير في "أغمات".

فهو هنا لا يحسدها على وكرها، لكن حنينه لماضيه جعله يرى تشابه في الشكل معها، أيام كان فيها كما كان، فلا شمله متصدع، ولا حشاه وجيع، ولا شمله متفرق، كأن لا أهل وأصل له.

بعدما أسر المعتمد بن عباد في سجن أغمات كان بالقرب من اشبيلية، ما يزال أحد بنيه بمعقل "أركش، وأعلن الثورة العارمة على يوسف بن تاشفين، يقول ابن خاقان في ذلك أنه لما أعلن الثورة واشتد خطره سار إليه الأمير "يسر بن أبي بكر" فحاصره سهورا حتى تمكن منه أخيرا فقتله وبقي وزراؤه وأهله معتصمين حتى اشتد عليهم الحصار، وفقدوا الأمل في النصر ودبّ فيهم الجوع ونزلت منهم طائفة، واستسلموا ولما فصل ابن المعتمد ذلك شدوا على المعتمد الوثائق وكبلوه بالحديد انتقاما منه على ما فعله ابنه، فتجددت الأحزان في قلبه، وزاد من همه الأسى، وثارت نزعات الحرية عنده واستبدت به الهموم والأسقام فعبر عن حالته المأساوية المزرية تلك وعن آلامه التي تنحر قلبه وتزيده لوعة وحرقة فوق عذاب الأسر وظلمات السجن في أغمات الرهيب، فقال في ذلك:

غَنتكَ أَغماتية الأَلحان ثَقَلَت عَلى الأَرواحِ وَالأَبدانِ

قَد كانَ كالثُعبان رُمحُكَ في الوَغى فَغَدا عَلَيكَ القَيدُ كالثُعبانِ

مُتَمَدّداً يَحميكَ كُلّ تعدّدٍ مُتَعطِّفاً لا رَحمَةً لِلعاني

قَلبي إِلى الرَحمانِ يَشكو بَثَّهُما خابَ مَن يَشكو إِلى الرَحمانِ

يا سائِلاً عَن شأنهِ وَمَكانهِ ما كانَ أَغنى شأنَهُ عَن شاني

هاتيكَ قَينَتهُ وَذَلِكَ قصرُهُ مِن بَعد أَيّ مَقاصرٍ وَقيانِ

مِن بعدِ كُلِّ عَزيزةٍ رمَيَّةٍ تَحكي الحَمائِمِ في ذرى الأَغصانِ[1]

مازال المعتمد كذلك يتوقد كبده بالزفرات ونفسه الكريمة تغص بالمحن، وتضيق بالآهات والحسرات والأسى، حتى وافته المنية في أغمات، لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر شوال وقيل في ذا الحجة سنة ثمانين وأربع مئة رحمه الله، ولما أحس بالمنية تزهقه وحبائلها تعلقه أمر أن تكتب هذه القصيدة على قبره عند موته قال فيها:

قَبرَ الغَريب سَقاكَ الرائِحُ الغادي حَقّاً ظَفَرتَ بِأَشلاء ابن عَبّادِ

بِالحِلمِ بالعِلمِ بِالنُعمى إِذِ اتّصلَت بِالخَصبِ إِن أَجدَبوا بالري لِلصادي

بالطاعِنِ الضارِبِ الرامي إِذا اقتَتَلوا بِالمَوتِ أَحمَرَ بالضرغامةِ العادي

بالدَهرِ في نَقِمٍ بِالبَحرِ في نَعِمٍ بِالبَدرِ في ظُلَمٍ بِالصَدرِ في النادي

نَعَم هُوَ الحَقُّ وافاني بِهِ قَدَرٌ مِنَ السَماءِ فَوافاني لِميعادِ

وَلَم أَكُن قَبلَ ذاكَ النَعشِ أَعلَمُهُ أَنَّ الجِبالَ تَهادى فَوقَ أَعوادِ[2]

ونودي في جنازته بالصلاة على الغريب كما أوصى قبل موته، وكتبت هذه الأبيات على قبره، وفاءا وتلبية لوصيته، بكتابتها على قبره قبل موته.

خامسا: تجليات الحس المأساوي من خلال البنية اللغوية

احتوت قصائد المعتمد بن عباد على قاموس لغوي كان قد نقل لنا أفكاره وأحاسيسه، ويسجل آلامه وآماله حتى، وذلك تحديدا في مرحلة أسره في سجون "أغمات"، وتجلت هذه المفردات بكثرة في الجزء الثاني من الديوان المعنون بـ "شعر الملك الأسير" «فقد كانت هذه الألفاظ تنقل مأساته وأحزانه في "أغمات" وهي ما تسمى بأولا "ألفاظ البكاء والحسرة والألم"، والتي بدورها غطت جميع أشعاره في مرحلة أسره»[3]، وهي آخر مرحلة من

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 183.

[2] المصدر نفسه، ص 193.

[3] د.عبد الدين حمروش، المعتمد بن عباد في سنواته الأخيرة، ص 112.

حياته فكل أيامه وقتها حسرات وكل لياليه أحزان وآلام، ومن المفردات التي جاءت في الديوان المعبرة عند الحس المأساوي نذكر منها:

1-الدمع: فقد وردت هذه البنية الإفرادية في الديوان مثلا في قوله:

لا نُرَع لِلدَمع في آماقِنا مَزَجته بِدَمٍ أَيدي الحُرَقْ [1]

2-الدنيا الدنية: وهو يتحدث هنا عن الدنيا وأنها ليست دائمة لأحد مهما كان عزه ومكانته، حيث يقول:

أَرى الدُنيا الدَنيَّةَ لا تُواتي فَأَجمَل في التَصَرُّف وَالطلابِ

وَلا يَغُرُرك مِنها حُسنُ بُردٍ لَهُ عَلَمانِ مِن ذَهَب الذَهابِ

فَأَوَّلُها رَجاءٌ مِن سَرابٍ وَآخرِها رِداءٌ مِن تُرابِ [2]

وهذه مفردات كتبها في غرض الزهد.

3-قبح الدهر: وهو هنا يتحدث عن ظلم الدهر له، بعدما انتقل من العز إلى الذل، ذكره فقال:

قُبِّحَ الدَهرُ فَماذا صَنَعا كُلَّما أَعطى نَفيسا نَزَعا [3]

4-أسر وفقر: هذان اللفظتان وردتا بكثرة في الديوان الجزاء الثاني مثلا قوله:

أَنا اليَومَ رَهنُ أسرٍ وَفَقرٍ مُستَباحُ الحِمى مَهيضُ الجَناحِ [4]

5-بكاء الوحيد: هنا يشكو وحدته وعزلته وغربته ومصاحبته الدمع، قال:

بَكى الوَحيدُ بَكى الزاهي وَقُبَّتُهُ وَالنَهرُ وَالتاجُ كُلٌّ ذُلُّهُ بادي

6-نار برقك: وهنا استعمل لفظة نار للدلالة على أن أحزانه لم تخب ولم تنطفئ حتى لقي أجله قال:

وَنارُ بَرقِكَ تَخبو إِثرَ وَقدَتِها وَنارُ قَلبي تَبقى الدَهرَ بُركانا

---

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 147.
[2] المصدر نفسه، ص 152.
[3] المصدر نفسه، ص 155.
[4] المصدر نفسه، ص 157.

7-الذل: وهو أكثر شيء تعرض له المعتمد في سنواته الأخيرة في قوله مثلا:

أَذَلَّ بَني ماءِ السَماءِ زَمانُهُم وَذُلُّ بَني ماءِ السَماء كَبيرُ [1]

8-ساءك العيد: وكان أشد حزنا مما سبق، لأن العيد أتى وهو أسير في أغمات بعيدا عن أحبته يقول:

فيما مَضى كُنتَ بِالأَعيادِ مَسرورا فَساءَكَ العيدُ في أَغماتَ مَأسورا [2]

9-الأسير: وردت هذه اللفظة للدلالة عن الحس المأساوي حيث قال:

غَريب بِأَرضِ المغربينِ أَسيرُ سَيبكي عَلَيهِ مِنبَرٌ وَسَريرُ [3]

10-الموت: كان يذوق مرارة الموت كل يوم، سواء نفسيا أو جسديا، وأنها حسبه أحسن من حياة الذل يقول:

أليس الموتُ أروحَ من حياةٍ **.يطولُ على الشّقيِّ بها الشّقاءُ** [4]

11-الكبل: وقد تحدث عنه بالكثرة في الديوان، وعن الألم الذي كان يسببه في يديه وساقه يقول:

لَكَ الحَمدُ مِن بعدِ السُيوفِ كُبولُ **بِساقيَّ مِنها في السُجون حُجولُ**

وقال:

قَيدي أَما تَعلمني مُسلما أَبَيتَ أَن تُشفِقَ أَو تَرحَما [5]

12-بكيت: وهي الأخرى لفظة دالة على الحس المأساوي، ذكر فقالي:

بَكَيتُ إِلى سَربِ القطَا إذا مَرَرنَا بِي سَوارِحَ لا سِجْنٌ يُعرَفُ ولا كَبر

13-الدماء: تحدث عنها كثيرا وكانت مصاحبة لدمعه فقال:

قالوا: حقيق!..في دَمْعِكَ مقَنَّع ممزوجة بدَمَاء

---

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 171.
[2] المصدر نفسه، ص 171.
[3] المصدر نفسه، ص 171
[4] المصدر نفسه، ص 176.
[5] المصدر نفسه، ص 181.

14-الأشجان: وهي أحزانه ومعاناته في أغمات في قوله:

عادَ بِشري الَّذي عهدتَ عُبوسا شَغَلَتني الأَشجانُ عَن أَفراحي

15-الشقاء: وهي مفردة ذكرها متأملا في النعيم بعد الشقاء فقال:

وتلْقَى نعِيما ينسي الشقا وتجني سراحًا ينسي الإسارا[1]

16-بكى المبارك: وردت هذه اللفظة في قوله:

بَكى المُبارَكُ في إثرِ ابن عَبّادِ بَكى عَلى أَثرِ غِزلانٍ وَآسادِ[2]

17- الغدر: كان الغدر وراء سقوط ملك المعتمد ثم سجنه حتى موته، حيث قال فيه:

هوى بكما القدار عني ولم أمت وأدْعَي وفييا قدْ نكصْت إلى الغدر[3]!

18-بكيت فتحًا: وظف هذه اللفظة في رثائه لابنه المأمون حيث قال:

بَكيتُ فَتحاً فَإِذ رُمتُ سَلوَتَهُ ثَوى يَزيدُ فَزادَ القَلبَ نيرانا[4]

19-منهيا ومأمورا: وقد استعمل هاتين اللفظتين للدلالة على تغير الأحوال كيف كان؟ وكيف أصبح؟ فقال:

قدْ كانَ دهْرُك إنْ تأمره ممتثيلا فردكَ الدَّهْرُ منْهِيا ومأمورا[5]

20-البؤس: وظف هذه البنية الإفرادية في قوله:

نعيْم وبؤسٌ ذا لذلك ناسخٌ وبعدهما نسخٌ المَنايَا الأمانيَا

---

[1] ا المعتمد بن عباد، الديوان، ص 160.

[2] المصدر نفسه، ص 161.

[3] المصدر نفسه، ص 163.

[4] المصدر نفسه، ص 166.

[5] المصدر نفسه، ص 166.

21- الظلم والنقم:في قوله:

بالدَّهرِ في نقمٍ بالبحْرِ في نَعِمٍ بالبدْرِ في ظُلَمٍ بالصَّدْرِ في النادي[1]

22- النعش:

ولمْ أكنْ قبل ذاكَ النَّعْش أعلَمهُ أن الجبَالَ تهادى فوْقَ أعوادِ؟[2]

23- قبر الغريب:

قبَر الغريبِ سَقَاكَ الرَّائحُ الغادي ! حقًّا ظفرت بأشلاءِ ابنِ عبّاد !

سادسا: تجليات الحس المأساوي من خلال حقل الطبيعة في شعر المعتمد

ما هو واضح أن شعراء الأندلس عموما، والمعتمد بن عباد خصوصا، قد تأثروا، بما حوته بيئتهم من مظاهر طبيعية ساحرة، فذكرها المعتمد بن عباد وهو في عز محنه، مأسورا هناك في أغمات، فنجده لجئ إلى الطبيعة مواسيا نفسه عما آل إليه من حس مأساوي عاشه في أغمات أهمها: الشمس، النجوم، الليل، النهر، الأرض، البحر، السحاب، سرب القطا، روضة، غدير، طيور....

اللفظة	الصفحة	الدلالة
الشمس	147	دلالة عن العز والمجد اللذان كانا عنده
نجومك	148	دلالة عن المكانة العالية التي كان يتمتع بها قبل أسره
جبال	149	دلالة على كبر همه وحزنه كبر الجبال وعلوها
الليل	160	دلالة على الظلام الذي سكن روحه وهو في أغمات مأسور
صخرة	165	دلالة على القسوة والصلابة

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 169.

[2] المصدر نفسه، ص 193.

بحر	165	دلالة على الشساعة والعمق
سحاب	162	دلالة على الحزن والرغبة في البكاء
سرب القطا	187	دلالة على حب الحرية
الطين	169	دلالة على تأزم الأحوال والحرمان
غدير	172	دلالة على الاستئناس
طيور حمام	172	دلالة على الحرية والسلام
مطر	189	دلالة على الرزق والعطاء
قبر	193	دلالة على الموت والوحدة والفناء

من خلال تتبعنا للمعجم الشعري في ديوان المعتمد الشاعر من تحقيق الباحث رضا الحبيب السويسي، أن جل مفرداته وألفاظه دارت حول البكاء والنحيب على الملك تارة وعلى أولاده تارة أخرى، تحدثت عن مأساته كيف كان أميرا، وملك اشبيلية وكيف صار يعيش مأساته في آخر سنوات حياته، وبالتالي تجّلى الحس المأساوي في شعره في أسمى تجلّياته.

سابعا: الحس المأساوي من خلال قصائد الوافدين:

لقد كان شعراء المعتمد بن عباد يكنّون الحب الخالص والتقدير ظاهرا وباطنا «حتى أولئك الذين كانوا يجلونه دون نظر إلى قيمة العطاء، و المنزلة التي أنزلهم فيها وللمكانة التي أحلهم عليها».[1]

ومن بني هؤلاء الشعراء نذكر:

أولا: أبو بكر بن اللبانة

[1] قيصر مصطفى، المعتمد بن عباد، ص 197.

فلاشك أن أبا بكر ابن اللبانة كان من أخلص الشعراء وأوفاهم لابن عباد، وهو من أولئك الذين أبقوا على حب المعتمد والاتصال به في أسره، أيام أغمات في محنته، التي أنهته وقضت عليه وعلى ملكه وله قصيدة في سياق زيارته للمعتمد في أغمات، يرثي فيها حال المعتمد، قصيدة بعنوان "لكل شيء ميقات" قال فيها:

لكلّ شيءٍ من الأشاء ميقاتُ وللمنى من منائيهن غاياتُ

والدهر في صبغة الحرباء منغمسٌ ألوانُ حالاته فيها استحالاتُ

ونحن من لعب الشطرنج في يده وربّما تمدّت بالبيدق الشاةُ

انفضْ يديك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا

وقل لعالمها الأرضي قد كتمت سريرة العالم العلويّ أغماتُ

طوتْ مطلّتها لا بل مذلّتها من لم تزل فوقه للعزّراياتُ

إلى أن قال:

لو كان يُفرجُ عنه بعض آونةٍ قامت بدعوته حتى الجامدات

له المهابات بالأرواح آخذة وأن تكن أخذت منه المهابات[1]

وهي أبيات مكثفة بشحن دلالية قوامها الاعتزاز من جهة والتحسر والحزن من جهة أخرى، ومصدرها الرثاء، ذكر فقال:

عندي رسالات شوق عنده فعسى مع الرّياحِ تُوافيهِ رسالاتُ

صارَتْ مَياسُمُهم والسُّحبُ منْ حَزَنٍ لها دموعٌ عليْهَا مُسْتهلات[2]

كما أن لابن اللبانة قصائد أخرى كتبها للمعتمد وهو في أغمات تدل دلالة واضحة عن حبه ووفائه وإخلاصه للمعتمد، والقارئ بمجرد أن يقرأ هذه الأبيات سيدرك حقا كم كانت مكانة المعتمد عند أحبائه، من

[1] عبد الدين حمروش، المعتمد بن عباد في سنواته الأخيرة، ص 149.

[2] المرجع نفسه، ص 151.

بين هذه القصائد نجد قصيدة بعنوان "تنشف رياحين السلام" وقد كتبها له وهو لا يزال حيا، أسير في أغمات يقول في مطلعها:

تنشق رياحين السلام فانما أفض بها مسكاً عليك مختما

وقل لي مجازا ان عدمت حقيقة لعلك في نعمى فكم كنت منعما

ومن أجمل قصائد ابن اللبانة كذلك قصيدة بعنوان "أقول سلام" يقول له فيها:

وداعُ ولكنّني أقول سلامًا وللنفس في ذكر الوداعِ حِمَامُ

أخادع نفسا إن تحققت النوى فليس لها بين الضُّلوع مَقَامُ

قد ائتلفتْ أهواؤَها بكَ جملةً كما ائتلفتْ في وكرهنَّ حَمَامُ[1]

هذا بعض ما جاء في شعر ابن اللبانة في رثاء المعتمد بن عباد، وله قصائد أخرى من ذلك ذرة للمعالي، أدلى فضلك...، وفي كلمة موجزة نقول بأنه الوصف والمدح وحتى الرثاء الصافي المشرب بالحب والإخلاص والولاء الصافي والصادق، وكم كان شأنه عاليا في قلوب أحبته.

ثانيا: ابن حمديس الصقلي

ومن شعراء المعتمد الوافدين عليه الشاعر الصقلي أبو محمد عبد الجبار بن حمديس الصقلي، قدم وافدا على المعتمد وأقام في اشبيلية مدية، وابن حتمديس يعتبر من أكثر الشعراء الذين وفوا المعتمد في أسره، وواسوه في محنته التي ألمت به كما يعد أكثرهم بكاء عليه، ولعلّ تأثره الشديد هذا يعود إلى أنه اكتوى بنار الغربة عن وطنه صقلية.[2]

وقد حاول ابن حمديس تعويض الانكسار النفسي الذي عاناه جراء احتلال وطنه، بحسن الضيافة التي وجدها في بلاط المعتمد بن عباد، لكن الحنين إلى الوطن شعور مقدس، ولم يستطع إخفاء شعوره نحو وطنه،

[1] عبد الدين حمروش، المعتمد بن عباد في سنواته الأخيرة، ص 158.

[2] عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 203.

لذلك كان من الأوفياء للمعتمد ودولة بني عباد، حتى عندما حلت الكارثة بالمعتمد ونزلت النازلة وسجن في أغمات لم يقطع صلته بالمعتمد، ولم يحاول الاتصال بسلاطين المرابطين وفاء منه للمعتمد، وطالما توجه بقصائد يرثي فيها ملك بني عباد والحقيقة أن الشكوى تزداد حدة «وتأخذ معاني عميقة في المرارة بازدياد مكانة قائلها وأهميته السياسية والأدبية، ففي سجن أغمات البعيد عاش المعتمد حياة شقية بائسة، وقضى أيام عسيرة رتيبة لا جديد فيها ولا بصيص أمل يضيئها»[1]، ولما كان الشعر لسان حال صاحبه، فقد صب الشاعر ابن حمديس كل مشاعر الألم التي تعتريه لسقوط المعتمد في شعره ومن ذلك قوله عند سقوط مملكة بني عباد:

أبادَ حياتي المَوْتُ إن كنتُ ساليا وأنتَ مقيمٌ في قيودكَ عانيا

وإنْ لمْ أُبارِ المُزْنَ قطراً بأدمعٍ عليكَ فلا سُقّيتُ منها الغواديا

تعريتُ من قلبي الذي كان ضاحكاً فما أَلْبسُ الأجْفانَ إلا بواكيا

وما فَرحي يْومَ المَسَرّةِ طائعاً ولا حَزَني يْومَ المساءَةِ عاصيا[2]

توضح هذه الأبيات حزن الشاعر الشديد لضياع مملكة بني عباد وخلع المعتمد ونفيه إلى أغمات، وقد تجلّى ذلك واضحا منذ البيت الأول الذي تمنى فيه "ابن حمديس" أن يبيده الموت إن كان قد نسي صديقه الملك، أو تغافل عن مراسلته وتذكره (أبادَ حياتي الموتُ إن كنتُ ساليًا)، وهو يظهر هنا ما يعانيه من ضيق وألم بعدما رأى المعتمد في تلك الحال المزرية والقيود تلف قدميه (وأنتَ مقيمٌ في قيودكَ عانيًا) وقد أظهر الشاعر في البيت الثاني مشاعر التحسر واللهفة والأسى على سقوط مملكة بني عباد في قوله: (وإن لمْ أُبَارِ المزن قطرا بأدمع)، فهو يريد رثاء المعتمد والبكاء عليه، لكن ذلك بالنسبة إليه غير كاف ولن يهدأ له بال حتى تكون دموعه شبهة في غزارتها "بالمزن" وهو السحاب المحمل بالمطر، وتبدو على الشاعر في هذه الأبيات مشاعر القلق والإحساس بالتمزق والتشتت، فلولا هذا الشعور بالألم الذي انتاب الشاعر بعد سقوط دولة بن عباد لما استطاع إخراج قصيدته بهذا

[1] محمد شهاب العاني، الشعر السياسي الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، دار دجلة، ط1، 2008م، ص 98.

[2] ابن حمديس الصقلي، الديوان، صححه وقدم له إحساس عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1960، ص 535-553.

الأسلوب المؤثر و الذي يجعلنا نحن كقراء نحس بالأسف لما أصاب المعتمد وأهله، من خلال تعبير الشاعر بهذه الكلمات عن المرارة المأساوية لما عاشه المعتمد بن عباد وأهله.

قد أظهر الشاعر تغير حاله من الفرح إلى الحزن بعد انهيار مملكة بني عباد (ضاحكا، باكيا، تعريتُ...)، فقد أطبق الحزن على قلبه، ولاسيما أنه ذاق مرارة النفي والغربة عن وطنه صقلية بعد سقوطها في أيدي النور ماندبين، فبكاءه على المعتمد إذن ما هو إلا بكاء على نفسه ورثاء لها.

وجاء في ديوان المعتمد "بن عباد" ما مفاده أن ابن حمديس قصد زيارة المعتمد بأغمات، فمنعه أحد الخدم من الدخول إليه وأخبر المعتمد بعد ذلك بما وقع فعاتب خادمه بعنف وكتب إلى ابن حمديس رسالة يعتذر منه فيها عما حصل قائلا:

حُجِبْتَ فَلا وَاللَه ماذاكَ عَن أَمري فأصغ فَدَتكَ النَّفسُ سمعًا إلى عُذرِي

فَما صارَ إخلالُ المكارم لي هوى ولا دار إحجالٌ لمثلك في صدري

وَلكنَّهُ لَمّا أَحالَت مَحاسِني يَدُ الدَّهرِ شَلَّت عنكَ دأبًا يدُ الدَّهرِ[1]

اعتذر الشاعر المعتمد في هذه الأبيات منذ البيت الأول عن معاناته مشقة السفر وجاء إلى أغمات مقتفيا أثره، لكن الخادم منعه الدخول، ما خر في نفس المعتمد وألا يرى شاعره الوفي فكتب له هذه الرسالة معتذرا متأسفا.

فرد الشاعر على قصيدة اعتذار الملك المعتمد بن عباد إليه بقصيدة أخرى عنوانها "أمثلك مولى" يقول فيها:

أَمِثلُكَ مولىً يَبسُطُ العبدَ بِالعذرِ بِغَيرِ انقِباضٍ مِنكَ يَجْري إلى ذكرِ

لَهَدّ قريضَ الفضلِ ما هدّ من قوى وَحَلّ به ما حلّ من عُقْدةِ الصّبرِ

وإنّي امْرؤ في خَجْلَةٍ مُسْتَمِرّةٍ يذوبُ لها في الماءِ جامدةُ الصّخْرِ

[1] المعتمد بن عباد، الديوان، ص 172، 173.

أتتني قوافيك التي جَلّ قدرُها بما نقطةٌ منهنّ مُغْرِقَةٌ بَحْري

لَعَلّك إذ أغنيتي منك بالنّدى أردتَ الغنى لي من مَديحك بِالفخرِ[1]

ويستمر الشاعر على هذه الحال في تبريره وجوابه بأنه بقبل اعتذاره وأنه حاشاه إن كان قد ظن به سواء، أو خيبة وهو الذي جاد عليه طول معرفته له بالكرم والسخاء، وهو الملك الكريم الذي لا يمثل من العطاء ويخبره أنه لم ينس كرمه وجوده عليه إلى اليوم، وأنه لا يزال يرثيه ويرثي حاله وحال أهله الشرفاء يقول:

تُحدّثُ عيني عينَهُ بالّذي يَرى بوجهكَ لي من حُسنِ مائيّة البِشرِ

ليالَيَ لا أشْدوكَ إلّا مطَوَّقاً بنعماكَ في أفنانِ رَوْضاتِكَ الخُضرِ[2]

إلى أن يقول له:

بَكَيتُ زَماناً كانَ لي بِكَ ضاحكاً وَكَسْرُ جناحي كان عندك ذا جِسْرِ

وأطرَقْتُ لمّا حالتِ الحالُ حَيْرَةً تَحَيّرَ منها عالَمُ النفس في صدري

فخذها كما أدري وإن كلّ خاطري وإن لم يكن منها البديعُ الّذي تدري[3]

ثالثا: أبو بكر بحر بن عبد الصمد

يقال إن أبا بكر بحر بن عبد الصمد كتب قصائد كثيرة يرثي فيها المعتمد بن عباد، من بين هذه القصائد نجد قصيدة بعنوان "ملك الملوك" كما أجمع عنها النقاد وقيل أنه أنشدها عند قبره، وبكى عنده بها، فأجاد فيها بقوله:

مَلِكَ المُلوكِ أَسَامِعٌ فَأُنَادي أَمْ قَد عَدَتكَ عن السَّماعِ عَوادِ؟

لما خَلَتْ منكَ القُصور ولم تكن فيها كما قد كُنتَ في الأَعيادِ

[1] عبد الدين حمروش، المعتمد بن عباد في سنواته الأخيرة، ص 164.
[2] المرجع نفسه، ص 164.
[3] المرجع نفسه، ص 165.

أَقْبلتُ في هذا الثَّرى لَكَ خاضِعًا وَتخَذتُ قَبرَكَ مَوْضعَ الإِنشادِ

قد كُنتُ أَحسبُ أَنْ تُبرد أَدمعي نيرانُ حُزْنٍ أُضْرِمَتْ بُفؤادي

فإذا بِدَمعي كُلَّما أَجريتُهُ زَادَتْ عليَّ حرارَةُ الأَكبادِ[1]

إلى أن قال:

إني لأعجبُ بعد فقدك كيف تتكسَّر الأسياف في الأغماد؟

أيحضب الخطي بعدك ثغره أو يركع الهندي فوق الهادي

يا ساكنَ القبرِ الذي فقدانُه قتل الرجاء وفت في الأعضادِ

فأبو بكر يتساءل: هل سيحققون نصرا بغياب المعتمد ؟ نافيا ذلك، فلا فوز، ولا ابتسامة وفرح بعد موته، لأنه كان سيف شعبه وسنده، وقوته وبعد موته ضاع قومه معه، ثم يناديه وهو في قبره، ويرجو لو كان أملا في عودته إلى أهله وشعبه يقول:

كنا نؤمل أن نرى لك كرة تعطي بها الأيام كل قياد

وتبيت خيلك في مرابِطِها على وعدٍ من الاتهام والانجاد[2]

ومنه نجد أن للمعتمد بن عباد أحبة شعراء صادقون و أنه برحيله ترك فراغا رهيبا في قلوبهم، لدرجة رثائه فوق قبره، وتحسرهم بعبارات صادقة وإن كانت شجية لكنها نابعة من صدق.

[1] عبد الدين حمروش، المعتمد بن عباد في سنواته الأخيرة، ص 171.

[2] المرجع نفسه، ص 172.

خاتمـــة

ومن خلال هذه الدراسة التي تحمل عنوان "الحس المأساوي في شعر المعتمد بن عبّاد"، توصلنا إلى مجموعة من النتائج والاستنتاجات أهمها:

- ✓ جاء الديوان حافلا بالألفاظ الدالة على الغربة والشوق والحس المأساوي مما عكس مرارة السجن.
- ✓ للمعتمد من خلال شعره يمتلك روحا مرهفة حساسة استطاعت نقل صورة الحس المأساوي والتعبير عنه لأنه ذاق مرارته.
- ✓ إنّ الحسّ المأساوي في الديوان وإن كان فرديا يخصه إلاّ أنه عبّر عنه بأسلوبه يمس كلّ فرد يقرأ شعره بتأني لأنه صادق معاش، ويظهر ذلك فيما كتبه الكتاب والأدباء والشعراء أمثال ابن زيدون وابن اللبانه وغيرهم من شعراء عصره.
- ✓ يعتبر شعر المعتمد بن عبّاد سجلاّ لحياته، فديوانه من القصيدة الأولى إلى القصيدة الأخيرة، تنطوي على أيامه ومراحل حياته، وتقلبات لنفسه.
- ✓ يتجلى الحسّ المأساوي في الكثير من البنيات الافرادية التي وظفها، مثل: أغمات، القيد، الأسر، الغربة، الموت...
- ✓ كما لم يخل شعر المعتمد من الرّقة والصدق في المشاعر، لاسيما ما كان مع صديقه ابن عمّار، وزوجته الرميكية وأبيه المعتضد.
- ✓ كما يمكن القول إنّ حياة المعتمد بن عبّاد كانت سلسلة من المآسي ومن المفاجآت والنكبات والانتصارات.
- ✓ مأساة المعتمد حملت في طياتها الكثير من الحزن والشجن والكثير من الأخبار والنوادر، وكانت أقرب ما تكون إلى الخيال منها إلى الواقع.

- ✓ كان الرثاء من أبرز الآثار المترتبة على الحزن الذي أصاب المعتمد بن عبّاد، وقد عبّر فيه عمّا يجول في وجدانه من مشاعر صادقة تجاه من يرثيهم وتجاه نفسه.
- ✓ كان رثاء الأهل والأحبة في شعره أكثر إحساسا بالمعاناة والآلام النفسية.
- ✓ ولعلّ ما توصلنا إليه لم يكن بالأمر الخفي ولا بالشيء العظيم، إنّما محاولة لإزالة الغموض عن شاعر ظلمه الدّهر ولم ينصفه الأنام، وكان الأسر مصيره، رغم العز والجاه الذي كان ينعم فيه.
- ✓ ومع هذا يبقى المتعمد بن عبّاد شمعة من شموع الأندلس، التي زالت، لكن نورها لا يزال مشعا في قلوب محبيه.
- ✓ وفي الأخير يمكن القول: تلك هي مأساة المعتمد وتلك هي حياته الحافلة تتضح في شعره وأخباره وأحواله، إذ أن شعره جاء سلسا صافيا رائقا حزينا آسفا بالحياة مجسدا كل ما مرّ به في حياته.
- ✓ أخيرا نتمنى أن نكون قد وفقنا، ولو بالشيء القليل في دراسة هذا البحث، والإحاطة ببعض جوانبه، حتى يكون مرجعا منيرا لكل من يرغب بالاطلاع على حياة هذا الملك والشّاعر العظيم.

الملاحـــق

أولا: السيرة الذاتية للمعتمد بن عبّاد:

المعتمد بن عبّاد، هو محمد بن عباد بن محمد إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن اسلم بن عمرو لخمي النسب، وقد ولد المعتمد على الله بمدينة باجة سنة"إحدى وثلاثين وأربعمائة هجرية"، وهو آخر ثالث وآخر ملوك بني عباد في الأندلس.

خلف والده في حكم اشبيلية عندما كان في الثلاثين من عمره، وكان له اهتمام كبير بالشعر، وكان يقضي من وقته بمجالس الشعراء فظهر في عهده شعراء معروفون أمثال: أبو بكر بن عمار، ابن زيدون وابن اللبانة...، وازدهرت اشبيلية عندما في عهده وعمره، وشيدت.

فيما يخص نشأته، فقد نشأ في باجة غرب الأندلس، وكان والده المعتضد يدربه على الحكم، منذ سن مبكر، فولاه منذ أن كان في (12) عاما ثم عينه قائد للجيش، وقاد معركة لحصار مدينة شلب ووقتها تعرف على أبي بكر بن عمار، الذي أصبح منذ ذلك الحين من الرجال المقربين إليه.

مراحل حياته:

يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مراحل:

أ- مرحلة الإمارة"الأمير":

بويع المعتمد بالأمارة بعد أبيه المعتضد سنة إحدى وستين وأربعمائة، وأفضى الأمر إليه، وهو في ريعان شبابه، ابن الـ(29) سنة، وكان المعتمد من الشجعان العقلاء، والأجواء الأسخياء، عفيف السيف، مخالفا لأبيه في القهر، إلا أنه كان مولعا بالخمر، منغمسا في اللذات، وهناك تعرف على ابن عمار الشلبي، الذي كان فقيرا

وماجنًا، رجل وضيع لا يملك ما يسد به رمقه، وكان محبا للشعر ومولعا به، ومن ثمّ تعرف عليه المعتمد ولازمه بشلب.

وهناك شخصية أخرى تجلت في بلاط المعتمد هي اعتماد الرميكية، التي كانت جارية تاجرة من مياسير اشبيلية، والتي ولع بها من النظرة الأولى، ذلك للملكة الشعرية وحسن المظهر الذي كانت تتمتع به حتى قبل: أن المعتمد تزوجها على سنة الأدب وشريعته.

ب- مرحلة الملك:

وتبدأ هذه المرحلة بعد وفاة أبيه المعتضد، سنة إحدى وستين وأربعمائة، حيث ولى أمر اشبيلية بعد أبيه وله ثلاثون سنة، وفي وفاة المعتضد بن عباد، وقيام المعتمد قال فيه أبو الحسن:

مات عبَّادُ ولكن بقي الفرعُ الكريمُ

فكأن الميتُ حيٌ غير أن الضّاد ميم

فالمعتمد لا يخلو من الطموح والحرص على توسيع أملاكه وبسط نفوذ أسرته، استولى على دار الخلافة بقرطبة، وفرّق أبناءه على قواعد الملك.

ج- مرحلة الأسر:

أقام المعتمد في أغمات أسيراً، قد ضيّف عليه، كاسف البال، كبير القلب يُسأم سوء المعاملة، ويتجرع من الهوان"، وتزدحم على خواطره الهموم... لكنه مع ذلك كان يتجلد ويتماسك ويتدرع بالصبر، وكان يؤلمه ويشقيه منظر بناته الناشئات في ظلال النعيم، وهن يغزلن ليحصلن على القوت. وفي السجن قال أجمل قصائده الشعرية

المسماة بالأسريات التي عبرت عن تجربة حقيقية لحياة الذل التي عاشها هذا الملك في سحنه، بعد حياة العز والمجد من أشعاره:

غريب بأرض المغربين أسيُر سيبكي عليه مبنى وسرير

كانت هذه هي المراحل التي مرّ بها المعتمد بن عباد أثناء إمارته ثم ملكه، وبعدها مرحلة أسره التي وافته المنية فيها.

ثانيا: آثاره:

احتل الشاعر المعتمد بن عباد ي الأدب الأندلسي مكانة كبيرة أهم من مكانة أبيه، وهو من شعراء العربية الذين أجمع الناس عن الإعجاب بهم في العا لم العربي الإسلامي، يقول"غرسيه غومس" عن شاعريته إذا كان لابد من تصوير المحنة العامة التي تسلمت الشعر خلال ذلك العمر في صورة شخص واحد من أهله فليس أوفق لذلك من المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية.

وقد جمعت أشعاره في ديوانين، الأول جمعه وحققه الأستاذان أحمد أحمد بدوي و حامد عبد المجيد بالقاهرة سنة 1951م، أما الثاني فقام بجمعه، وتحقيقه الدكتور: رضا الحبيب السويسي سنة 1975م، بتونس، وهو الذي اعتمدناه في بحثنا هذا حيث قام بجمعه على أسس سليمة، والتحقيق له طبقا لمبادئ قويمة، فإن كان ترتيب القطع والقصائد حسب الأبواب العامة دون تقص وترو في الطبعة السابقة، فقد بات من الضروري أن يتبع ترتيبًا يتماشى والأغراض الشعرية، كما تجده يتبع تسلسلا تاريخيا في الحنين لنفسه كلما أمكن ذلك؛ ثم بالرجوع إلى أكبر مراحل حياة الشاعر على الأقل.

قسم حياة شاعرنا إلى مرحلتين هامتين هما حياته قبل الأسر وبعد الأسر، وتجزأ المرحلة الأولى إلى جزئين، حياة "الأمير فالملك" حيث رتب الأغراض والمضوعات الشعرية فتناول في المرحلة الأولى: الغزل، الخمريات، الوصف، شعر المناسبات (اعتذارات إلى أبيه)، ثم شعره الشخصي الذي يضمّ[الفخر، الرثاء، الإجازات،

والمطارحات والمطيرات، والرسائل]، أما المرحلة الثانية وهي مرحلة الأسر، فقد تناول فيها شعر المعتمد من فترة خلعه إلى آخر قصيدة نظمها وأوصى بأن تكتب على قبره.

ثالثا: وفاته:

كان للأسر والسجن ومعاناة الأغلال والكبول ما انتاب نفسه من الأ لم والمعاناة، وتعاورها من الهم والغم أثر قوي في إنهاك صحة المعتمد وهدم بنيانه العتيق، ويظهر أن المرض اشتد به في السنتين الأخيرتين من حياته، وقد شاركته في آلامه امرأته المحبوبة"الرميكية"؛ وقد شاء القدر أن تتوفى "إعتماد" زوجته قبله ممّا زاده همًّا وحسرةً، فكان هذا الحدث بمثابة ضربة موجعة له.

وبالفعل فلم يمرّ إلا وقت قصير حتى وافته المنية هو الآخر وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين (488هـ)، وكان في الخامسة والخمسين من العمر فدفن بجانب زوجته فالقبران موجودان بأغمات إلى يومنا هذا.

قائمة المراجع

1- المصادر:

1- المعتمد بن عبّاد ملك اشبيلية، الديوان، جمع وتح: الدكتور رضا الحبيب السويسي، دار تونسية للنشر، 1040هـ-1095م.

2- المعتمد بن عبّاد، الديوان، جمعه وحققه، أحمد بدوي وحامد عبد المجيد، المطبعة الأميرية، بيروت، لبنان، 1951م.

3- ابن حمديس الصقلي، الديوان، صححه وقدمه إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، لبنان، د ط، 1960م.

4- ابن خفاجة، الديوان، تح السيد مصطفى غازي، الأسكندرية.

5- عبيد بن الأبرص، تح كرم البستاني، دار صادر، بيروت.

2- الكتب:

1- صلاح خالص اشبيلية في القرن الرابع هجري، دار الثقافة، بيروت، 1965م.

2- الحميري، البديع في وصف الربيع، تح هنري بيرس، د ط، الرباط، 1940م.

3- ابن بسّام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1997م.

4- عبد الوهاب عزام، المعتمد بن عبّاد الملك الجواد الشّجاع المرزا، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م.

5- قيصر مصطفى، المعتمد بن عبّاد، مؤسسة الأشرف للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1432هـ-2011م.

6- ابن رشيق القيرواني، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تح محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط5، 1981م.

7- عبد الله الخاطر، الحزن والاكتئاب على ضوء الكتاب والسّنة، المنتدى الإسلامي للطباعة والنشر، جامعة السعودية، 1412هـ.

8- دوخي بن زايد بن علي الحارثي، الظلم وأثره على الفرد والمجتمع في ضوء الكتاب والسّنة، دار الطرفين للنشر، د ط.

9- عبد الدين حمروش، المعتمد بن عبّاد في سنواته الأخيرة، دار الكتاب القطرية، قطر.

10- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي)، دار المعارف، القاهرة، ط8.

11- أبو محمد علي بن سعيد بن حزم، طوق الحمامة في الألفة والآلاف، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط5، 2008م.

12- محمد رجب، الاغتراب سيرة ومصطلح، دار المعارف، الإسكندرية، 1975م.

13- محمد شهاب العاني، الشعر السياسي الأندلسي في عصر ملوك الطوائف، دار دجلة، ط1، 2008م.

14- أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تح إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، 1833م، ج4.

15- عمر ابراهيم توفيق، صورة المجتمع الأندلسي في القرن الخامس، دار غيداء، عمان، ط1، 1433هـ-2012م.

16- محمد بن عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2.

17- إسماعيل بن إبراهيم، تاريخ المؤمنين من الفتح حتى السقوط، تح أنور محمد زناتي، عين شمس، مصر،(د ط)، (د ت).

18- عمر فروخ، تاريخ الأدب العربي في المغرب والأندلس، دار العلم، بيروت، لبنان، 1984م، ج4.

19- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، عمان، د ط، 1997م.

20- ابن خاقان، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، تونس، د ط، 1996م.

21- عماد عبد الرحيم علي فالح الهنداوي، مدخل إلى علم النفس، دار الكتاب الجامعي، العين، الإمارات العربية المتحدة، ط8، 2014م.

22- محمد كشاس، اللغة والحواس، رؤية في التواصل والتعبير بالعلامات غير اللسانية، المكتبة المصرية، بيروت، ط1، 2001م.

23- يحي الجبوري، الحنين والغربة في الشعر العربي، دار مجدلاوي، عمان، الأردن، ط1، 2008م.

24- مولين ميرتسنت كليفوردانس، الكوميديا والتراجيدي، تر علي أحمد محمود، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1979م.

25- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، قضاياه، وظواهره، ط3، دار العودة، بيروت، 1981م.

26- أنطوان معلوف، المدخل إلى المأساة والفلسفة المأساوية، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع، بيروت، ط1.

27- عدنان رشيد، دراسات في علم الجمال، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1985م.

28- عز الدين إسماعيل، الأدب وفنونه(دراسة ونقد)، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، ط1، 2002م.

29- خليل حسن محمد، الخوف في الشعر العربي قبل الإسلام، دار خلة، عمان، الأردن، ط2، 2009م.

30- محمد سعيد محمد، دراسات في الأدب الأندلسي، دار الكتب الوطنية، ليبيا، ط1، 2007م.

31- فاطمة طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1993م.

32- أبو عبد الله الحسن بن الحسين الزوزني، شرح المعلقات العشر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983م.

33- حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، ط2، 2003م.

34- غازي ظليمات، الأدب الجاهلي: قضاياه فنون، نصوص، دار الفكر، دمشق، المطبعة العالمية، ط1، 2002م.

35- عبد الواحد بن ياسر، المأساة والرؤيا المأساوية في المسرح، الرباط، المغرب، ط1، 2013م.

36- عبد العزيز، عتيق الأدب العربي الأندلسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1975م.

3- المعاجم والقواميس:

1- ابن منظور، لسان العرب، ج6، مادة(حس)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1994م.

2- الجوهري أبي نصر إسماعيل بن حماد، تاج اللغة وصحاح العربية، تح محمد محمد تامر، أنس الشامي، زكرياء، جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، مصر، 2009م.

3- الفيروز آبادي، قاموس المحيط، مادة(الحس)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1990م.

4- مصطفى إبراهيم وآخرون، قاموس الوسيط، مادة(الحس)، المكتبة الإسلامية، اسطنبول، تركيا.

5- عزة عجان، قاموس عربي للتلاميذ والطلاب، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، بوزريعة، الجزائر، (د س).

6- أمل عبد العزيز، القاموس العربي الشامل(عربي-عربي)، دار الراتب الجامعية.

7- مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولي، مصر، ط4، يئس، 2004م.

8- ابن الحسن أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، مقاييس اللغة ج1، مادة(أس)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

9- يوسف محمد رضا، معجم العربية الكلاسيكية والمعاصرة، معجم ألف بائي، موسع في اللغة العربية، مكتبة لبنان، دط، د ت.

10- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ج1، د ط، 1982م.

11- الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر، بيروت، لبنان مج18.

4- المجلات والرسائل:

1- محمد أمين بحري: المأساوي في الأدب العالمي، (المصطلح الحامل- الأشكال)، مجلة الآداب واللغات، جامعة الجزائر، العدد4، 2010م.

2- خميسي بولعراس، الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر الملوك والطوائف، إشراف مسعود مزهودي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة باتنة، 2006م-2007م.

3- حمة دحماني، ظاهرة المأساة في الشعر العربي، مجلة الآداب، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، العدد10، 2009م.

فهرس المحتويات

الموضـــوع	الصفحة
شكر وتقدير	
إهداء	
مقدمة	**أ– د**
مدخل: الحياة العامة في دولة بني العبّاد	**19–6**
الفصل الأول: الحس المأساوي: بحث في المفهوم والبواعث والخصائص	
أولا: الحس المأساوي بين المفهوم اللغوي والاصطلاحي	**21**
أ. الحس لغة	**21**
ب. الحس اصطلاحا	**23**
ج. المأساة لغة	**22**
د. المأساة اصطلاحا	**24**
هـ. البعد المأساوي	**27**
و. الحس المأساوي	**28**
ز. صلة الحس بالمأساة	**32**
ثانيا: بواعث الحس المأساوي	**33**
ثالثا: الحس المأساوي في الشعر العربي	**38**
1- في العصر الجاهلي	**38**
2- في العصر الإسلامي	**41**

3- في العصر الأندلسي	42
الفصل الثاني: تجليات الحس المأساوي في شعر المعتمد بن عباد	
أولا: صورة المأساة في شعر المعتمد بن عبّاد	53
أ-صورة الحزن	53
ب- صورة البعد والمنفى	54
ج-صورة الظلم	55
د-صورة السجن	57
ثانيا: تجليات الحس المأساوي في ديوان المعتمد بن عبّاد من خلال غرض الرثاء	59
أ. رثائه لأبنائه	61
ب. رثائه لزوجته وبناته	66
ج. رثائه لملكه ودولته	71
د.رثائه لنفسه	76
ثالثا: تجليات الحس المأساوي من خلال"أسريات المعتمد بن عبّاد"	80
أ. الحنين والشوق	80
ب. الشكوى	81
ج. معاناته مع القيد	82
د.وصف السجن	83
هـ. آلام الغربة	85

رابعا: تجليات الحس المأساوي من خلال عنونة القصائد	85
خامسا: تجليات الحس المأساوي من خلال البنية اللغوية	94
سادسا: تجليات الحس المأساوي من خلال حقل الطبيعة	98
سابعا: تجليات الحس المأساوي من خلال قصائد الوافدين	99
خاتمة	108-107
ملحق	113-110
قائمة المصادر والمراجع	119-115
فهرس الموضوعات	123-121

ملخص:

تمحورت دراستنا بشكل عام حول موضوع يمس كل شخص لأنه جزء من كيانه الإنساني والوجداني، موضوع نابع من عمق شعورنا ، الحس المأساوي، وتجلياته في ديوان المعتمد بن عباد محل للدراسة، فالبداية كانت عبارة عن مدخل تطرقنا فيه إلى البيئة السياسية والاجتماعية والثقافية...للشاعر ثم انتقلنا إلى الفصل الأول الذي تحدثنا فيه عن مفهوم الحس المأساوي والمأساة من الناحية اللغوية والاصطلاحية، بالإضافة إلى بواعث الحس المأساوي ثم تتبعنا مراحل تطور المأساة عبر العصور مرورا بالعصر الجاهلي ثم الإسلامي ثم الأندلسي، أمّا الفصل الثاني فكان عبارة عن دراسة تطبيقية تناولنا فيه تجلي الحس المأساوي في الديوان محاولين إبراز تمظهر الحس المأساوي في الديوان من خلال غرض الرثاء وقصائد الأسريات كما تطرقنا إلى الحقل الدلالي للفظة المأساة في الديوان، أما الختام فكان إبراز تجليات الحس المأساوي من خلال قصائد الوافدين إلى المعتمد بن عباد.

الكلمات المفتاحية: الحس المأساوي، الأسر، المأساة في الديوان المعتمد بن عباد.